جيروم فيراري



# حيث تركت روحي

جائزة تلفزيون فرنسا لأفضل رواية سنة 2010

رواية

مسكيلياني

ترجمة: محمد صالح الغامدي

جيروم فيراري

# حيث تركتُ روحي

رواية

ترجمة: محمد صالح الغامدي

مراجعة: هالة العتيري

مسكيلياني للنشر

عنوان الكتاب الأصليّ

Où j'ai laissé mon âme

Jérôme Ferrari

المؤلّف: جيروم فيراري
عنوان الكتاب: حيث تركتُ روحي
ترجمة: محمّد صالح الغامدي
مراجعة: هالة العتيري
تدقيق: بلال المسعودي
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان
الناشر: مسكيلياني للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 6-67-833-9938-978

الطبعة الأولى: 2016

---



---

إلى جان إيف تمبلون

يقول إنّه لا يعرف الراحة، حتى عندما يحضر القمر، وإنّه يمارس عملا شنيعا. هذا ما يقوله دائما عندما لا ينام؛ أما إذا نام فإنه يرى دائماً الحلم ذاته. طريق إلى القمر يتوق إلى السير فيه، من أجل متابعة الكلام مع السجين هانوستري. لأنه، حسب تأكيده، لم يكن لديه الوقت الكافي لقول كلّ ما كان يجول في ذهنه، ذلك اليوم المشهور من الماضي، يوم 14 من ربيع نيسان. شيء مّا كان يمنعه، للأسف، من أن يسلك هذا الطريق... ولا أحد أتى صوبه.

ميخائيل بولغاكوف، المعلّم ومارجريت.

أتذكّرك سيدي النقيب، أتذكّرك جيدا. ولا أزال أرى بوضوح تلك الفوضى القاتمة والشرود اللذين سكنا عينيك عندما أخبرتك أنّه شنق نفسه. كان ذلك، يا سيدي النقيب منذ زمن بعيد، في صباح يوم بارد من أيام الربيع. ومع ذلك رأيت أمامي، في لحظة قصيرة، ذلك العجوز الذي أصبحتَ عليه في النهاية. سألتني كيف يعقل أنّنا تركنا سجينا بأهمية «طاهر» دون مراقبة، وكرّرت عدّة مرّات: كيف يعقل؟ وكأنه كان لزاما عليك أن تفهم اللامبالاة غير المعقولة التي جعلَت منّا مذنبين. ولكن بمَ كان يمكنني الردّ عليك؟ فلذت بالصمت. ابتسمت لك، وانتهى الأمر بأنك فهمت. رأيتك حينها وقد اسودّت الدنيا في عينيك وتقوقعت خلف مكتبك، وكأنما جرت في عروقك كل السنوات الباقية من عمرك، واندفَعَت بقوّة من قلبك لتغمرك تماما فأشاهد أمامي، فجأة، عجوزا يحتضر، أو ربّما طفلا صغيرا، يتيما، منسيّا على قارعة طريق صحراوي طويل. حدّقت فيّ بعينيك المليئتين بالحقد، وشعرت بنفحة باردة من كرهك العاجز. لم تؤنّبني، يا سيدي النقيب. كانت شفتاك ترتعشان لمنع تيّار الكلمات المرّة التي لم يكن لك الحق في النطق بها. وكان جسدك ينتفض، فما هزه ليثور كان أضعف من أن يصل إلى هدفه الأخير. كما أن السذاجة والرجاء ليسا عذرين، يا سيدي النقيب، وأنت تعلم جيدا أنك مثلي لا تستطيع أن تتبرأ من موته. أطرقت بصرك في الأرض. وأتذكّر جيدا أنك همهمت بصوت مكسور: «سلبته منّي، يا أندرياني، سلبته منّي». عندها شعرت

بالعار من أجلك لأنك لم تعد تملك القوّة لإخفاء أساك. عندما تمالكت نفسك، أشرت إليّ بيدك دون أن تنظر، بحركة اليد التي لا تستخدم إلا لطرد خدم المنزل والكلاب. لم تصبر كي آخذ الوقت اللازم لتحيّتك فقلت: «دعني وشأني أيّها الملازم!» ولكني أكملت تحيّتي لك واستدرت بكل دقّة نصف استدارة نظامية قبل الخروج، لأن هناك أشياء أكثر أهمية من مشاعرك. كنت سعيدا بخروجي إلى الشارع، وأعترف بذلك، يا سيدى النقيب. كنت سعيدا بالابتعاد عن عرضك المثير للاشمئزاز لآلامك وصراعك غير المجدي ضدّ ذاتك. ملأت صدري بالهواء النقي، وفكّرت أنّه ربما عليّ إبلاغ قيادة الأركان لإعفائك من جميع مهامّك. كنت أعتقد أن ذلك من واجبي، لكني تخليت مباشرة عن تلك الفكرة، يا سيدي النقيب، فلا يوجد فضيلة تسمو على فضيلة الولاء. هل تعلم، كنت، مع كل ذلك، سعيدا جدا بلقائك من جديد، وكان لدي أمل أنك أنت أيضا كنت سعيداً ولو للحظة بلقائي، فلقد تجاوزنا معا كثيرا من الأوقات الصعبة. لكن لا أحد يعرف القانون السرّي الذي يحكم الأرواح، فسريعا ما تبيّن لي أنك كنت بعيدا عني ولم يعد بمقدورنا أن نفهم بعضنا.

عندما قبلتُ رئاسة هذه الشعبة الخاصّة، واستقررتُ مع رجالي في فيلا «سانت أوجين»، أصبحت يا سيدى النقيب عدائيّا. أتذكّر ذلك جيداً، ولم أتمكن من تفسيره، وهذا ما جعلني أشعر بالألم. أستطيع اليوم أن أقول لك إنّ مهمّتينا لم تكونا مختلفتين للحدّ الذي تعطي نفسك الحقّ في أن تكرهني وتحتقرني بهذه الصورة. لقد كنا جنودا، يا سيدي النقيب، ولم يكن من مهامنا أن نختار طريقة خوض الحرب. أنا أيضا كنت أتمنى خوضها بطريقة مختلفة. أتعلم، أنا أيضا كنت أتمنى القتال ورؤية دماء المحاربين بدلا من هذا العمل الممل في البحث

عن المعلومات، ولكن هذا الخيار لم يتح لنا. إلى اليوم لا أزال أسأل نفسي بأيّ منطق معوجّ استطعت إقناع نفسك أن أفعالك كانت أفضل من أفعالي. فأنت أيضا، يا سيدي النقيب، بحثت عن المعلومات وحصلت عليها، ولم يكن هناك إلا وسيلة واحدة فقط لذلك. نعم، وسيلة واحدة فقط وأنت تعرفها واستخدمتها، مثلي. وفظاعة هذه الوسيلة الوحيدة لا يمكن، بأي حال، أن يزيحها أي وازع لديك؛ لا سخريتك الأنيقة، ولا تعصّبك الأعمى، ولا ندمك. كل ذلك لم يؤدّ إلا إلى شيء واحد فقط وهو أنّه جعل منك، ومنّا جميعا، مثيرين للسخرية.

عندما تلقيت الأوامر بالقدوم لتولّي قضية «طاهر» في مركز قيادة البيار، داعبني للحظة الأمل بأنّ فرحة القبض على أحد زعماء جبهة التحرير الوطني قد جعلتك وديّا أكثر. لكنك لم توجّه إليّ الحديث وإنما طلبت إخراج «طاهر» من زنزانته وأكرمته. أحضروه أمامي على مرأى صفّ من الجنود الفرنسيين الذين أخفضوا السلاح، بأمر منك، احتراما لهذا الإرهابي ابن العاهرة. وكان علي، يا سيدى النقيب، أن أتحمّل هذه الإهانة دون أن أنبس ببنت شفة. آه، يا سيدي النقيب! لماذا كل هذه المهزلة، ماذا كنت ترجو؟ ربما عِرفان هذا الرجل، الذي فتنت به إلى درجة انهيارك عندما علمت بموته؟ لكن... أنت تعلم أنه لم يتكلم عنك مطلقاً. لم يذكرك بتاتاً. لم يقل يوما إنّ النقيب «دوغورس» إنسان رائع، أو شيئا من هذا القبيل. وما يلفت انتباهي أنك مطلقا، أتسمعني سيدي النقيب، أقول مطلقا، لم تحتلّ حيزا صغيرا من تفكيره. لقد كان «طاهر» رجلا قاسيا، ويؤسفني القول، سيدي النقيب، إنه لا يشاركك توجهك العاطفي. كان يعلم جيدا، بخلافك أنت، أنه سيموت. لم يتخيل أي نهاية سعيدة ممّا كان يخطر

على بالك في لحظات حماسك وتصرفاتك الصبيانية العمياء. نعم، سيدي النقيب، صبيانية وليس لها عذر، فما كنت تستطيع تجاهل ما كانت عليه فيلا «سانت أوجين»، ما كنت تستطيع أن تنكر معرفتك بأنه لم يخرج منها أحد حيّا، فهي لم تكن منزلا. كانت بابا مفتوحا على الهاوية، شرخا يشقّ قماشة العالم ليقود إلى العدم. رأيت، يا سيدي النقيب، كثيرا من الرجال يموتون. كانوا يعلمون أنه لن يراهم أحد مجدداً، وللأبد. لم يقبّل جباههم أحد وهم يتلون الشهادة، ولم ترفع يد أحد أجسادهم بعناية، ولم يباركهم أحد قبل أن نعهد بهم إلى باطن الأرض. لم يكن لديهم سواي، وكنت حينها أقرب إليهم ممّا كانت عليه أمهاتهم في أيّ يوم من الأيام. بل كنت أنا أمّهم ودليلهم، فأخذتهم إلى حافة النسيان، إلى ضفاف نهر ليس له اسم، في صمت تامّ لا يمكن لصلوات الخلاص ووعوده أن تشوّشه.

كان «طاهر»، بمعنى مّا، محظوظا لأنك عرضته أمام الإعلام، واضطررنا إلى إعادة جثته. لو كان الأمر بيدي، سيدي النقيب، لأذبته في الجير، أو لألقيته في أعماق البحر، أو لنثرته لرياح الصحراء ومسحته من الذاكرة. كنت سأجعل منه كأن لم يكن أبداً. لقد كان «طاهر» يعرف ذلك، كان يعرف ماذا يعني «عدو». أمّا أنت، سيدي النقيب، فلم تعرف شيئا من ذلك نهائياً. إنّنا لا نحاكم عدونا بعاطفتنا واحترامنا، الذي ينبغي عليه القيام به أمامنا، وإنما بكراهيتنا وقسوتنا... وابتهاجنا. ربما، قد تتذكر ذلك الطالب الإكليريكي المنتدب الغبي، الذي جاءنا وهو لا يعرف شيئا عن مهمتنا، وعمل سكرتيرا عندي بمهمّة محدّدة. كان مثلك، سيدي النقيب، يعاني من سطوة روح حسّاسة، بل حسّاسة جدا. كانت روحه بريئة وشريفة أكثر من روحك. عندما وصل، شعر بالارتياح معتقدا أنّ يديه لن تتلطخا،

وأنّه بصورة مّا بعيد عن الذنوب، حتى أنه عندما حضر ليعرّفني على نفسه كدت أطرده. كان دائم النظر إلى البحر من نوافذ الفيلا وإلى أشجار الغار في الحديقة، ولم يكن قادراً على منع نفسه من الابتسام. أعتقد أنه لم يسبق له في حياته، أن رأى مثل ذلك النور والاتساع. كان يشعر بأنه حي أكثر ممّا سبق ومتحرّر من إشراقات الفجر الرطبة، وهو جاث على ركبتيه أمام الألواح الجليدية في كنيسة مظلمة، متحرّر من التمتمات المخزية في غرفة الاعتراف المتعفّنة المعتمة. لكنّي أبقيته. ففي نهاية المطاف لم يكن بيدي اتّخاذ قرار الدروس التي ينبغي أخذها مهما كلّف الأمر، ولا تلك التي كان ينبغي الهروب منها. والسبب، سيدي النقيب، أنّ كل فرد منا، اضطرّ لسماع الدرس الأبدي والفظ ذاته إلى نهايته. لم يطلب منا أحد ما إذا كنا مهيّئين للإنصات إليه. لذلك طلبت من المنتدب الصغير أنّ عليه تسجيل الملاحظات أثناء عمليّات استجواب المتّهمين. أمليت عليه بعض العبارات. كانت كتابته محدّدة ودقيقة وأنيقة. فسمحت له بالبقاء.

عاد لرؤيتي، وكان مرتبكا، وقال: «حضرة الملازم، أرجوك، إنّ جدران الغرفة مغطّاة بالصور الإباحية، ذلك غير مقبول». طلب مني نزعها وهو يتلعثم. أخبرته أنني لا أهتم بهذا النوع من المواضيع، وأن عليه أن ينظر في اتجاه آخر. غادر. ذهبت أبحث عنه، بعد قليل، فوجدته جالساً على طرف سريره بجانب حقيبته المفتوحة يحدق في الصور. كان فكّه السفلي متدليا وبين يديه تمثال بشع من الخشب الأسود للمسيح مصلوبا. كان يبدو عليه، يا سيدي النقيب، أنه مجروح جدا. يشابه حالتك عندما أخبرتك أن «طاهرا» شنق نفسه. لكني قادر على تفهمه لأنه لم يعرف غير ظل العذراء المتوهّد وهي مثنيّة في معطفها الأزرق الطويل، والدموع الصافية لمريم المجدلية،

والعشق الإلهي لتيريزا الأفليونيّة. والآن، لا يستطيع أن يبعد عن عينيه هؤلاء النسوة المباعدات بين أفخاذهن أمامه مع شعر العانة المجعّد، وفروجهن المشعّة والمفتوحة كأنها ضربة سكّين. كان يشعر بأنّ نار جهنم تلتهم نخاع عظامه في الوقت الذي كان يحمل جسد سيده بين يديه. ولا شيء قادر على أن يجعله يدير نظره.

في اليوم التالي، سيدي النقيب، جعلته يحضر أول جلسات التحقيق. جلس في ركن الغرفة ودفتره على ركبتيه. لم يقل شيئاً عندما علّقنا العربي في السقف. وكأنه، منذ وصوله، غير قادر على فعل شيء سوى فتح عينيه على اتّساعهما والاحتراق والخرس. عرفت يا سيدي النقيب، كيف أجعله يفهم سريعا وبرضاه أنه لا يوجد ما يمكن قوله حول هذا الأمر. ربطت طرفي سلك الكهرباء بأذن المتّهم وعضوه التناسلي. نظر إلى الجسد العاري يهيج ويتصلّب والصرخات تلوي فمه الكبير. شاهد الماء يسيل، وقطعة القماش المنقوعة ملتصقة بوجه العربي الذي كان يضرب الأرض بكعبيه المسلوختين مغطية الإسمنت الرطب ببقع الدم. عندما رفعنا قطعة القماش المبللة بعد أن جعر العربي كبهيمة قائلا إنّه «سيتكلم»، كان المنتدب الصغير ما يزال ينظر، ما دفعني لأن أذكّره أن عليه الآن تسجيل الملاحظات. تحمّل، كل تلك الأيام، الملل المميت لآلية العمل التي كنا، أنت وأنا، غالباً أصحاب القرار فيها. وتحمّل تكرار الترتيبات الثابتة ذاتها التي كانت تجمعنا حول بشاعة الأجساد العارية. وطوال ما كان قريبا مني، أدّى مهمته دون شكوى. علّق تمثال الصلب على الجدار بين الصور، وذهب مع الرجال إلى منطقة القصبة العليا، إلى ماخور سيدي مسعود، قبل أن يتغير بالكامل وللأبد. وافق دون مقاومة أن يكون ذلك الرجل الذي كان مقدّرا له أن يكون، ودون تبجح. أمّا أنت، يا

سيدي النقيب، فلم تتقبل أبداً، ولم تكن مطلقاً على مستوى قدرك. لم تعرف غير بذل جهود بائسة لتلقي بعيدا عنك ذلك الشخص الذي كنت في طريقك لتكونه، وبالطبع، رغم كلّ ما فعلت، أصبحت ذلك الشخص. كل ما هو خارج عن التقلبات الحرجة لروحك لا تبالي بها. في الحقيقة إنّ العالم لا يهمك، يا سيدي النقيب. أنت لا تهتمّ إلا بكل ما قد يلوّث صورتك التي رسمتها وأجللتها. أنت النقيب «أندريه دوغورس»، أليس كذلك، المقاوم والمنفي بعيدا عن وطنه في سنّ التاسعة عشرة، والناجي من معركة «ديان بيان فو» ومعتقلات «فيات مينه». أعطاك التاريخ، لباقي عمرك، شهادة الضحيّة الرسمية، وتعلقت بصورة بائسة بهذه الشهادة. لم تعرف سوى إنهاك نفسك، دون داع، في تطوير التمييزات الدقيقة التي ليس لها أي معنى. ما هو نظيف وما هو وسخ، ما هو لائق بك وما لا يليق، وما هي درجة المهارة المناسبة للتعامل مع الأعداء. وقد توجّب عليك أن تندم على عدم وجود مرشد يختصّ بتهدئة قلق المبتدئين الذي أصابك. إنك غير قادر على الحب والتعاطف، إلا إذا كان المقصود تعاطف الكهنة النظري، ذلك الحب المجرد للقادم الذي لا وجود له. أنت تذكر، سيدي النقيب، أنه عندما قام سفّاحو «طاهر» بالقضاء على ماخور سيدي مسعود، ذهبت إلى مكان الأحداث مع فرقتي. تقابلنا في الطريق وطلبت إيقاف جميع رجال المنازل المجاورة الذين كانوا يزعمون أنهم لم يسمعوا شيئاً. كان رأس سيدي مسعود ملقى على مقعد حجري في البهو. والفتيات متكوّمات فوق بعضهن في صحن الدار، وأحشاؤهن منثورة على ألواح الرخام. لم يتقيأ ذلك المنتدب الشاب، لكنه بكى. بكى، يا سيدي النقيب، كثيرا على جثث أولئك الفتيات. بكى في ذكرى الودّ والمواساة، وفي ذكرى القبلات. بكى دون أن يستطيع التوقف،

ولكنه في الليلة التالية وعندما حان وقت التحقيق مع الجيران كان قد توقف عن البكاء. ضربهم بالماسورة أسفل ظهورهم، واحدا تلو الآخر، وأدار ذراع المولّد الكهربائي. هكذا أبان عن حقيقة تعاطفه، أكثر ممّا كانت ستفعل دموعه، برغم أنّنا لم نحصل على أي معلومة تلك الليلة. هذا ما يستطيع فعله التعاطف، سيدي النقيب، وبالطبع، وهذا شيء أنت غير قادر بتاتا على فهمه، فإن العاهرات المشقوقة بطونهن لا يستحققن لطف اهتمامك، ولا عذابات أولئك الذين أصمّوا آذانهم وتركوهن يقتلن، ولا أولئك الذين ذبحوهن، وأوّلهم «طاهر»، الذي تعجبك فيه أخلاقه الرخيصة لدرجة أنّك أكرمته أمام عيني، سيدي النقيب. نعم أمام عيني، دون أن تفكّر في الرعب الذي أصاب المومسات، ودون أن تفكر في مراهقات «خمّارة ميلك» اللاتي تقطّعت أجسادهن بسبب القنبلة التي أرسلها لهن «طاهر» عقابا على شبابهن وإقبالهن على الحياة دون هموم، دون أدنى فكرة، وذلك في سبيل شيء واحد فقط هو أنت ونبلك العسكري الرائع. منذ فترة طويلة لم يعد أحد يذكر الشابات اللاتي قتلن في «خمّارة ميلك» أمّا أنت، يا سيدي النقيب، فلم تكلّف نفسك أن تنساهن لأنك ببساطة لم تفكر فيهن إطلاقاً. ربما كنت على حق، فما الداعي للتفكير فيما سننساه لا محالة لاحقا؟ كنّ يستمعن إلى الموسيقى ويشربن عصير الليمون، يا سيدي النقيب، عندما دخلت عليهن امرأة من القبائل بيضاء البشرة ثم وضعت حقيبة بها قنبلة على المنضدة. لم ينتبه أحد إليها عندما غادرت، فالأولاد كانوا مشغولين جدا بالنظر إلى نهود الشابات تحت القماش الخفيف للملابس الصيفية. كانوا يتبادلون ببلاهة عجيبة الحديث الذي أخرسه الانفجار. لم يكن لهم قيمة كبيرة، يا سيدي النقيب، كانوا مليئين بالثقة والعجرفة والاستهتار. لكنّهم كانوا منا،

مثلهم كمثل المومسات، ليس لهم قيمة وعلينا نحن أن نشهد أنهم كانوا أحياء. ينبغي لنا أن نشهد بذلك بالماء والكهرباء وبالسكين وبكل قوة تعاطفنا. كل شيء ينسى سريعا، يا سيدي النقيب، فكل شيء لا قيمة له نهائياً.

هل تعلم، لقد عدت إلى هناك قبل عدّة سنوات، في طائرة شبة خالية. لا أحد يتذكرنا. وفي المطار ختم الشرطي جوازي متمنيا لي إقامة طيبة. ربما ظن أنني إحدى الأقدام السوداء المريضة بالحنين، وأريد رؤية البيت الذي عشت فيه طفولتي قبل أن أموت. لكنه بكل تأكيد لم يطرح هذا السؤال حتى على نفسه. أصبحت المدينة كعجوز منهكة مطمورة في أوساخها، ومنهارة تحت بهرجة الماضي العتيق. كان الأمير عبد القادر يقف أمام «خمّارة ميلك» رافعاً سيف النصر، والشوارع تحمل أسماء الإرهابيّين الذين قتلناهم. ولكن لا تخطئْ، يا سيدي النقيب، فهم أيضا أصبحوا منسيين. سيرتهم العظيمة محتهم من الذاكرة إلى الأبد، وبكل تأكيد أكثر ممّا كان سيفعله الصمت. أجّرت غرفة في سان جورج، كان على جدران الغرفة بقع من آثار الرطوبة وألواح زجاجية مزخرفة مفككة، إلاّ أن رائحة الياسمين ما تزال تعطّر أجواء الحديقة، مثلما كان الأمر قبل أربعين عاما عندما كنت أغادر الفيلا لاحتساء كأس وسكي تحت أشعة شمس الشتاء. استأجرت سيّارة أجرة. سألني سائقها عن سبب قدومي هنا فكذبت عليه، يا سيدي النقيب، قلت له بأني مريض بالحنين وأرغب في رؤية منزل طفولتي من جديد قبل أن أموت. اقترح أن يأخذني إلى هناك ولكن قلت إني سأذهب لاحقا. أخذ يشتكي من انقطاع المياه ومن مهنته التي تجبره على القيادة في الليل مُخاطرا بالوقوع ضحية نقطة تفتيش مزيفة. وقد حدث له ذلك مرة، بل إنه أحرق لسانه عندما

ابتلع سيجارته مشتعلة. كما ترى، سيدي النقيب، فالإسلامويّون لا يحبّون المدخنين. إنها هذه الأخلاقويّة المقيتة التي يشتركون فيها مع أصدقائك من جبهة جيش التحرير. كان السائق يضحك من نجاته من ذلك الموقف. طلبت منه توصيلي إلى ميدان الشهداء وانتظاري لحظات. مررت أمام كنيس اليهود وصعدت إلى القصبة. أطفال يلعبون بين القاذورات والأنقاض. ورجل يستمع إلى الموسيقى، في غرفة معتمة، يتمايل من الأمام إلى الخلف ووجهه بين يديه. كان لدي الانطباع بالقدرة على المشي دون أن يضيع دربي في هذه المتاهة، مثلما كنّا نفعل في الماضي البعيد بالقفز من سقف إلى سقف، يا سيدي النقيب، عندما كان رجال «طاهر» يختبئون كالجرذان في شبكة الآبار والسراديب المظلمة متعلمين كيف يخشوننا. عدت أدراجي وأخبرت سائق سيّارة الأجرة أن يقوم بجولة حول المدينة قبل أن يعيدني إلى الفندق. قدنا بمحاذاة البحر إلى سان أوجين. لمحت الفيلا، وأعتقد أنها أصبحت اليوم ملكا لأحد الضباط الكبار، لكني متأكد أن الأشباح الذين تركتهم هناك لا يحرمونه النعاس.

لقد أدّيت عملي على أكمل وجه. صعدنا صوب البيار، ومررنا أمام قاعة كانت الموسيقى تصدح منها بمناسبة زواج. تفاعل معها سائق الأجرة وأخذ يردّدها. إنها أغنية قديمة جدا كان يغنيها «بلقاسم»، الحركي الذي كان في شعبتي. أتذكّر كلماتها جيّدا، سيدي النقيب: «آه لو كانت روحي بين يدي». أغنية معروفة جدا، قطعا سبق لك سماعها أنت أيضا.

«أحبك سارة،

دعيني أظل في قلبك،

فأنت حياتي، سارة».

كان سائق سيّارة الأجرة يغني بصوت عال: «قد أموت من أجلك، سارة». وكانت تبدو عليه السعادة وأنا أدندن معه: «لا تهجريني، سارة. لقد تركتِ في قلبي أثرا لا يمّحي أبداً». عندما وصلنا الفندق أعطيته ألف دينار وأخبرته بأنها الأجرة الكاملة وأني لم أكن حريصا بهذا القدر على رؤية المنزل الذي عشت فيه طفولتي. لكنه أصر على إعطائي رقم هاتفه للضرورة وصافحني. كل شيء لا قيمة له، سيدي النقيب. كل شيء يُنسى بسرعة كبيرة. دماؤنا، والدماء التي أرقناها مسحها منذ فترة طويلة دم جديد وسيأتي بعده دم آخر يمحوه.

قرأت الصحف في جوّ لطيف تغمره رائحة الياسمين. سبعة عشر رجل جمارك تمّ قتلهم في «تيميمون»، وثلاثة رجال شرطة قطعت رؤوسهم في «سطيف». وموكب زفاف كامل تمّ ذبحه، بين «بشار» و«تاغيت» في نقطة تفتيش مزيفة. كل شيء لا قيمة له نهائياً. كان اسم العروس «سامية»، أو ربما «ريم»، أو «نرجس». من سيتذكّر؟ أفعالنا ليس لها قيمة، سيدي النقيب، إلا أنك متكبّر جدا فيصعب عليك قبول ذلك. ألا ترى ذلك؟ أفعالنا ليس لها أي وزن، سيدي النقيب، إنها غير محسوبة. ربما وجد عرق من البشر كانوا يعرفون ذلك، وربما أولئك الذين ذبحوا العروسين يعرفون أيضا. أما نحن فأصبحنا رهيفين. لم يعد باستطاعتنا التخلّص من أفعالنا، كما نتخلص، ببساطة، من الغائط. وهكذا سمّمنا أنفسنا، أفعالنا سمّمتنا، وصرنا نختنق تحت وطأة الإنكار أو التبرير. وهنا، وبمعنى من المعاني، أرى أني أشبهك، سيدي النقيب، رغم أن ذلك لا يسرّني. لو لم أشبهك ولم أعط أهمية قصوى لأفعالي، ما كنت لألتحق بمنظمة الجيش السري. كنت سأعود إلى بيتي وكنت سأفكر في شيء آخر. ولكن ماذا أقول، ففي هذا النسيان العامّ أتذكّر كل شيء، سيدي النقيب. أتذكّر ذلك جيدا. لا يمكن أن

يكون لدينا ولاء دون ذاكرة، وسبق أن أخبرتك أنّي صاحب ولاء. نعم سيدي النقيب، من بيننا نحن الاثنين أنا من خان الجمهورية، ورغم ذلك فأنا من ظهر أنه صاحب ولاء. أنا لا أكلّمك عن فرنسا الخالدة، ولا عن مجمل الأمّة، ولا عن شرف السلاح أو العَلَم، لا شيء من هذه الأشياء المجرّدة الخرقاء التي اعتقدت أنك ستقيم عليها حياتك. إنّي أحدّثك عن الأشياء الملموسة والهشة التي كنا نحن المؤتمنين عليها. أحدّثك عن عويل مومسات سيدي مسعود، عن دموع المنتدب الذي كان معي، عن الضحكة الصغيرة الغبية للفتيات في «خمّارة ميلك». أحدّثك عن أغنية الحركي «بلقاسم» الذي تركته أنت وأشباهك ليواجه الموت عام 1962 باسم ما أطلقتم عليه الواجب. إني أحدّثك عن كل ما قمت بخيانته دون إحساس. هذا هو الشيء الوحيد الذي أدين له بولائي. وحتّى أنتهي أقول إنه لا يهم بعد ذلك لو أن كل شيء التهمه النسيان. لكن أنت يا سيدي النقيب، لا تكترث للعالم. تنهك نفسك بالتفكير البليد في الفاجعة الاستثنائية التي أعطيت لك لتعيش، ولا تزال تتساءل كيف أصبحت جلادا وقاتلا. آه يا سيدي النقيب، إنها الحقيقة، لا يوجد شيء مستحيل: أنت جلاد وقاتل. لا تستطيع فعل شيء حيال ذلك، حتى وإن كنت غير قادر على قبوله. إن النسيان، يا سيدي النقيب، يلتهم الماضي ولا شيء يستطيع افتداءه. لم يعد أحد يهتم بك، إلا إذا استثنيناك أنت. العالم لم يعد يعرف من تكون، والإله ليس له وجود. وعليه، لا أحد سيعاقبك على أفعالك، لا أحد سيمنحك فرصة الافتداء بالعقوبة التي يطالب بها كبرياؤك. لا فائدة ترجى من توسلاتك. ألم تتعلم شيئا؟ هل أنت أعمى لهذه الدرجة؟ أنت لم تعش شيئا استثنائيا، سيدي النقيب. العالم مليء دائماً بالرجال أمثالك، ولم يعان أي ضحية من ألم التحول إلى جلاد مع التغير

البسيط جدا للظروف. تذكّر، سيدي النقيب، أنه درس قاس، دائم وقاس. إن العالم قديم، نعرفه تماما، سيدي النقيب، وذاكرة الناس قصيرة جدا. ما عاش في حياتك سبق أن فعل ذلك سلفا، في مواقف مشابهة مرّات لا يمكن حسابها. والألفية القادمة لن تأتي بجديد. هذا ليس سرا. لدينا القليل من الذاكرة. نحن نختفي كأجيال من النمل. وكل شيء سيعود بالضرورة ليبدأ من جديد. إن العالم، يا سيدي النقيب، معلم تافه، فهو لا يعرف سوى تكرار الأشياء إلى ما لا نهاية، ونحن تلاميذ عنيدون طالما أن الدرس لم يُسجل بألم في لحمنا. نحن لا نسمع ونُشيح بنظرنا إلى مكان آخر، ونثير جلبة سخط بمجرد أن يطلب منا الالتزام بالنظام. لو لم تجعل منك الحياة جنديا، سيدي النقيب، لو لم تلزمك بالجلوس في الصفّ الأوّل من القسم، لكنت أنت أيضا ساخطاً، ولربما أرسلت مقالات الاحتجاج إلى أصدقائك في صحيفة «الهيومانيتيه». ولكتبت ربما حول حقوق الإنسان المطلقة، وعن كرامته، ولربما تأملت يديك الجميلتين النظيفتين والبيضاوين بتعجّب دون أن تلاحظ مطلقاً أن بين أضلعك يخفق قلب جلاد، إلاّ أن الحياة لم تسمح لك بأن تستمتع بهذه الراحة. أنت تعرف ماذا يعنيه كبرياء الإنسان، وما هي قيمة الرجال، ومن ضمنهم أنت وأنا. أتذكَر جيدا أنك، عندما وصلنا معتقل «فييت» بعد معركة «ديان بيان فو»، كنت أوّل من علمني ذلك. كما علمتني الكثير من الأشياء الأخرى. كنا جالسين منهكين جائعين مع مجموعة من السجناء. قلت لي: «أنا أعرف ماذا يعني معتقل، يا هوراس. بعد بضعة أيام لن نثق في أي من رفقائنا. وسترى الإنسان، وينبغي أن تعرف كيف تحذر من هذا الإنسان. إنه الإنسان عاريا». هذه كلماتك الخاصة، أتذكّرها جيدا، وكنت على صواب. هل نسيت ذلك؟ هل انتهى الأمر بك للاقتناع

أنك فوق مستوى الجنس البشري؟ ليس للرجال قيمة كبيرة، سيدي النقيب. بصورة عامّة، لا يساوون شيئا. مستحيل تمييزهم وفقا لقيمتهم، ويظل الانحياز الحل الوحيد. لا يتعلق الأمر سوى بالاعتراف بمن ينتمون إلينا، وأنهم أصحاب ولاء. لكن ذلك صعب عليك. أنت لا تستطيع التوقف عن إصدار الأحكام. عشقك المبالغ فيه لإصدار الأحكام وصل إلى حدّ أنك لم تتردد ثانية واحدة في التخلي عن شرفك، وشرفنا جميعا، بالبحث عن تقدير رجل «كطاهر»، وإلى اليوم لا تزال مستعدّا لاستجداء عفو أوّل القادمين، كما يفعل صبي خجل للتحرّش بالخادمة. كم هو غريب كبرياؤك، سيدي النقيب. وأسألك: «من له حق إصدار حكم علينا؟ الإله الذي تعتقد أنه خلق هذا العالم؟ الشعب الذي قاتلنا باسمه طوال حياتنا وأبدى اعترافه بالفضل عبر نفينا إلى القاع النتن لسريرته السيئة؟ لقد حكموا علي بالموت، سيدي النقيب، ثم تفضلوا علي بالعفو الشامل. كان لديهم الحق في قتلي أو الإبقاء علي، لا يهم، لكن لم يكن من حقّهم نهائياً، ولا في أي حال، لا الحكم علي ولا العفو. ليس من حقّهم نهائيا الحكم علينا، سيدي النقيب. نحن أكبر من فهمهم، ولومهم أو مدحهم لا يعني شيئا. كم كنت أتمنى لو أنك فهمت ذلك في نهاية الأمر. لقد تلقينا تعليمات العالم، واستمعنا لدرسه الخالد والقاسي، وكنا، أنت وأنا، من أدوات تعليمه عديمة الشفقة. نعم، حتى أنت يا سيدي النقيب، في كل مرة كنت تضعهم عراة تحت الضوء، في كل مرة كان المعدن واللحم يخترقان أجسادهم، في كل مرة منعت أجفانهم أن تغمض، في كل مرة كنت تفيقهم بالقوة، وتمنعهم من التنفس، وتلذعهم بالنار، كنت تشارك في هذا التعليم لكل من مرّ بين يديك. لكنك ما كنت تحضر نهايتهم، ولم تكن تعرف. أنا، رأيت كثيرا من الرجال يموتون، يا

سيدي النقيب. كنت أقرب إليهم من أمهاتهم، وأستطيع التأكيد أنهم جميعا تعلّموا شيئا، شيئاً مهماً. تعلّموا حقيقة لم يعرفها «طاهر» لأنك لم ترد، ولا حتى أن تدفعه إليها قليلا. كنا نتجول خارج المدينة ليلا، ونحلّق فوق الخليج. كانوا صامتين في مؤخّرة شاحنة أو في مروحية. لم يكونوا يبكون، ولا يتوسلون. لم يعد لديهم لا الرغبة ولا الثورة. كانوا يتقلّبون دون صراخ في الحفرة الجماعية. يسقطون في البحر سقطة طويلة صامتة. لم يكونوا خائفين، أعرف ذلك لأني نظرت في عيني كل واحد منهم، كما ينبغي لي أن أقوم به، سيدي النقيب. إن الموت شأن جاد، ولكنهم لم يكونوا خائفين. جعلنا الموت لطيفا عليهم. فعلنا ذلك من أجلهم. كانوا ينظرون إليّ هم أيضا، يشاهدون وجهي وأعينهم خالية. أتذكّر ذلك جيدا. لا يشاهد في أعينهم أي أثر لكراهية، أو حكم... ولا حنين. لا نرى شيئا سوى السلام والراحة بأنهم أصبحوا، أخيرا وبفضلنا، أحرارا، سيدي النقيب. لم يعد بإمكان أحد منهم أن يتجاهل أنّ الجسد، حقاً، مقبرة.



## 27 مارس 1957: اليوم الأول

سفر التكوين، 4، 10



في قمة المخطط الهيكلي الضخم، الذي يحتل جزءا كبيرا من الجدار، يظهر «طارق الحاج ناصر»، الشهير «بطاهر»، أي النقي، وهو ينظر إلى الجميع بحزن عميق. لم يكن قد اكتسب اسم شهرته بعد، عندما التقطت له هذه الصور في مخفر قسنطينة. كان موظفا في أحد البنوك، ولديه أفكار هدامة. كان قد بدأ يستوعب أنه لم يعد بإمكانه الهرب من قدره كزعيم لإحدى الحروب السرية. استسلم، ربما، دون حماس. قبل شهرين، عندما استولى النقيب «أندريه دوغورس» على المكان، كان «طاهر» هو الزعيم الأوحد، كأنه حاكم لمملكة غير مرئية على قمة المخطط الهيكلي الخالي، الذي أصبح اليوم مغطى بالكامل، تقريبا، بالعشرات من الأسماء والصور، الموسوم أغلبها بعلامة حمراء صغيرة. عندما لا يصبح هناك أي خانة فارغة سيكون النقيب «دوغورس» قد أدى مهمته. هو يعلم الآن أنها مسألة وقت، ويعلم أيضا أنه، عندها، سيكون غير قادر على الفرح بانتصاره. كان يحلم بالانتصار طوال حياته، إلاّ أنه لم يعرف سوى الفشل. لم يتصور، وفي الليلة السابقة للتي سيستجاب له فيها أخيرا، أن عليه اكتشاف قساوة النجاح، وأن ثمنه قد يكون أغلى من كل ما قدّمه مسبقا.

لم يعد قادرا على التوسل. جثا على ركبتيه رغم ذلك في زاوية شبه معتمة في غرفته. أجبر نفسه حدّ التقوى على ألا تخرج من بين شفتيه كلمة واحدة، كما يفعل منذ طفولته. ظل، دون أي حركة، صامتا. وترك نفسه تهدهد تحت وقع النبضات المنتظمة لقلبه المسترخي

إلى أن قرّر، أخيرا، فتح الكتاب المقدّس. ودون تحديد لصفحة بدأ القراءة. قرأ بصوت منخفض بعض المقاطع لم تحمل إليه أي سلوى. ولم يعد يرى أي أمل في الكتابة المقدسة، إنما مجرّد تعابير مكررة دون توقف لوعيد مرعب. لم يعد بمقدوره تلقي رسائل «جان ماري» دون أن يرتعش. كل يوم، يؤجل فتحها خوفا من أن تحمل القصاص المسبق. يتخيل أن ابن أخيها أصبح فجأة عاجزاً، أو أن ابنته ماتت بعد أن اجتاحها التهاب رئوي لعدة أيام، أو صدمتها سيارة، وكل ذلك بسبب ما يفعله هنا.

*(أعرف من أنت. منذ فترة طويلة وأنا أسمع صوتك. أنت إله غيور تعاقب الأبناء، والأحفاد وأبناءهم على أخطاء الآباء)*

حتى هذا الصباح اكتفى بتلمس الظرف بأطراف أصابعه وهو يستنشق العطر قبل أن يستدعي أحد مرؤوسيه.

- «فيبفاي»، نبّه القبائلي أني سآتي لرؤيته. ضع الآخرين الذين معه في زنزانة أخرى. احمل له بعض السجائر، وشيئا من الشاي. أظهر له الودّ، وقل له إن التحقيقات انتهت وسوف أمرّ فقط للتحدث معه. أخبرني عندما يصبح كل شيء جاهزا.

أشعل النقيب «دوغورس» سيجارة. أخذ يدخنها بعناية وجبهته مستندة على زجاج النافذة. الشمس تسطع على الخليج والبحر لا تظلّله أي غيمة. لكن السماء لم تكن زرقاء تماما. كانت تنتشر فيها سحب مبللة صفراء تعطيها صبغة القذارة المكدرة لماء مستنقع. في هذه البلاد، السماء ليست زرقاء مطلقاً، حتى في الصيف، بل وخاصة في الصيف. عندها تطمس رياح الصحراء الحارة ضواحي المدينة بعواصفها الترابية الحمراء القاتمة، وترتفع من أمواج البحر المتوسط الميتة أبخرة ضباب يخطف الأبصار مع اهتزاز القوقعة الحمراء

لسفن الشحن. يتذكر الإجازات السابقة في إبريل قبل عامين مع «جان ماري» والأطفال، والإفطار في شرفة أحد فنادق «بيانا» في مواجهة «خليج بورتو»، والقطع الواضح جدا للمصبّات المائية على اللون الأزرق العميق لسماء شفافة، ويجد صعوبة في تصديق أن الشواطئ التي يشاهدها اليوم يبللها البحر ذاته المتد تحت السماء ذاتها.

أزاح صورة ابنته التي تبتسم في ضوء الخريف. يريد أن يرمي وراء ظهره سلفا ما ينبغي له عمله الآن.

- كل شيء جاهز سيدي النقيب.

* * *

كان القبائلي مستندا على الجدار. عاريا، ملتحفا بغطاء قذر. ركّز عينيه الخضراوين على النقيب الذي تربّع جالسا في مواجهته.

- يبدو أنك استعدت عافيتك، قال النقيب «دوغورس» وهو يضع يده على كتفه.

منع القبائلي أنين الألم وهو يحاول الابتعاد. سحب النقيب يده.

- لقد كنت شجاعا جدا، هل تعرف؟ فعلا، جميع رجالي معجبون بك. إنهم يحترمونك كثيرا. على كل حال انتهى الأمر الآن، كان على الرقيب أن يخبرك بذلك. نحن لسنا متوحشين. الجميع يعلم أنك لن تقول شيئا. لن نُلِح، فما هي الفائدة؟ إني معجب بك جدا.

أشعل النقيب سيجارة وأعطى أخرى للقبائلي. وكرّر قائلا:

- أنا فعلا معجب. هل تعلم؟ لقد مررت بالأمر ذاته أنا أيضا عام 1944، ولذلك أعلم عمّا أتحدث.

رفع القبائلي كتفيه فأفلت النقيب ضحكة سخرية صغيرة.

- أرى أنك قبلت سجائري ورفضت إعجابي، أليس كذلك «عبد الكريم»؟

ارتجف القبائلي.

- «عبد الكريم آيت كاسي»، إنه اسم جميل جدا. اسم محارب مليء بالعزة. كنت مخطئاً في إخفائه عنا هذه الفترة الطويلة، ثم إنه كما تعرف لم يغير من الأمر شيئا كثيرا. ليس الجميع بمثل شجاعتك.

انحنى النقيب إلى الأمام. ثم أنهى كلامه بنبرة باردة:

- نحن لا نحب هذا العمل ولكننا نؤدّيه. قال وقد اعتدل في وقفته وسحب بهدوء نفسا من سيجارته.

*(إني ممثل. هزلي يمثل مقطعا ساخرا كئيبا. وينبغي تمثيل هذا المقطع الهزلي إلى النهاية دون تراجع ولا هوادة. كل شعرة من رأسي محسوبة، وكل كذبة، وكل حيلة ماكرة. ويجب عليّ التمثيل إلى النهاية)*

- كما قلت لك «عبد الكريم»، لن نحقّق معك مرة أخرى. ولكن، ومن باب إرضاء الضمير، وبما أنّه لدينا الآن اسمك، سوف نطرح بعض الأسئلة على أفراد عائلتك. قد نسأل أختك ذات الستة عشر عاما، على ما أعتقد، ولها العينان الخضراوان الرائعتان ذاتهما. أنا مستعدّ للمراهنة على ذلك. سيكون رجالي سعداء جدا باستجوابها.

أخذ «عبدالكريم» يرتجف. أخفى وجهه بين يديه.

- كما سيشرّف رجالي أن يستجوبوا والدتك. قد يستجوبون من يشاؤون، كما تعلم.

يكاد النحيب يمزق صدر «عبد الكريم»، ودموعه تتساقط بين يديه.

- أنا عضو في المقاومة، قال «عبد الكريم» وهو يبكي.

مرر النقيب «دوغورس» يده على شعره بحركة عاطفية، أبوية تقريبا.

- ولكن هذا أعرفه من قبل. هاه. لست في حاجة لأن تعترف لي به، أنا لست غبيا كما تعلم. هذا لا يكفي، يا «عبد الكريم»، لا يكفي أبداً.

*(لا، هذا لا يكفي، والغثيان لا يكفي ولا طعم العفن في الفم. يجب المتابعة. يوم الحساب ستستدعي المنصفين على يمينك. اسمك «عبدالكريم»؟ وأنا؟ ماذا ستفعل بي؟ في أي دائرة من جهنم ستلقي بي، بين أي صنف من الهالكين؟)*

أعطاه «عبد الكريم» عنوانا. شارع في الحي الأوربي بالقرب من تيليملي.

- من سأجد في هذا العنوان؟ سأله النقيب.

- لا أعرف شيئا البتة عن ذلك!

- هل ستعرفه أختك ربما؟ ووالدتك... ألن تعرفه؟

- لا. والله لا أعرف شيئا. أقسم لك. كل ما أعرفه أنه عنوان لمكان نستخدمه. أقسم بالله. صاح «عبد الكريم» وهو يتمسك بزي النقيب.

- اهدأ، إني أصدقك. اهدأ. سأذهب لأرى.

لكن «عبد الكريم» لم يكن بمقدوره التوقف عن البكاء والارتجاف.

- شيء أخير وسأتركك. أريد ثلاثة أسماء. اسم الشخص الذي استقطبك واسمي الاثنين اللذين استقطبتهما أنت.

أعطاه الأسماء الثلاثة. وقف النقيب «دوغورس». قرع الباب كي يستدعي الرقيب «فيبفاي»، ودموع «عبد الكريم» لا تتوقف.

- أيها الرقيب، من فضلك لا تتركه لوحده أبداً. ولا ثانية واحدة. كي لا يسبب لنا أي مشكلة.

جلس النقيب القرفصاء بالقرب من «عبد الكريم» وقال:

- أختك ووالدتك لن تسمعا شيئا عنا. هذا وعد مني.

ارتفع صوت «عبد الكريم» بالبكاء أكثر من ذي قبل.

* * *

- «مورو»، خذ سيارة واثنين من الرجال. سنقوم بجولة إلى «تيليملي». سننطلق خلال عشرين دقيقة.

وضع النقيب علامة حمراء على صورة عبد الكريم المشبوكة بدبوس على المخطط الهيكلي. سجّل الأسماء التي حصل عليها منذ قليل في الخانات الخالية المتجاورة، كما أرسلها إلى قيادة الأركان. كان يشعر بالفراغ والحيرة. جلس على مكتبه وأشعل سيجارة هرسها بقدمة مباشرة. أمسك برسالة «جان ماري» ومزق الظرف بحركة واحدة. «أندريه، طفلي، حبيبي، نفكّر فيك كثيرا...» أعاد الرسالة. مسح وجهه بيده وقد أطلق تنهيدة. الارتياح الذي اعتراه غادره سريعا، ووجد نفسه وحيدا من جديد، تائها في خمول ناتج عن تعب شديد غير قابل للشفاء. رفع عينيه صوب المخطط الهيكلي. يحاول أن يخبر نفسه أن كل علامة حمراء تمثل قنبلة لن تنفجر. يحاول أن يفكر في كل أولئك الذين أُنقذت حياتهم دون أن يعلموا به بتاتاً. لكن كل شيء يظل بعيداً ومجرداً، ولن يثير إلا أطيافا مبهمة دون أيّ وجه.

*(لا نستطيع عدّ الأرواح التي أُنقذت، لا نستطيع سوى عدّ الأموات. إنّي متعب جدا من عدّ الأموات. وعجزي ليس له حدود.)*

انجرف في عرض منطق مطلق، رياضي. بمجرد أن تؤسّس

مقدمات المشكلة بوضوح، كل استنتاج يخرج بدقة من استنتاج سابق. يصبح النقيب «دوغورس» ملزماً بقبول أن ارتباطهما الرائع يفرض نفسه بسلطة الضرورة المطلقة التي لا يجد العقل الإنساني مناصا من الخضوع لها. بحث فترة طويلة عن عيب ولكنه لم يجد. من مقدمات المشكلة ينتج حلها، الأمر بهذه البساطة. وليس بيده حيلة. كان يقف أمام نتيجة لا يستطيع رفضها ولا تحملها، وحتى لو أن كل قدراته الفكرية أصبحت مخدرة من ذلك، فإن عليه يوميا، ودون تأخير، تنفيذ النتائج العملية التي تتضمنها هذه النتيجة بدورها. يجب أن يتكلم السجناء. يجب على الجميع أن يتكلموا. ومن المستحيل التمييز المسبق بين أولئك الذين يصمتون لإخفاء معلومات وأولئك الذين لا يملكون أي معلومة يقولونها. لا يوجد غير تجربة الألم للتمييز بينهم. وإذا كان ممكنا، يجب استجواب المدينة بأسرها. لا حيلة للنقيب «دوغورس» في ذلك. الشيء الوحيد الذي تحت سلطته هو عدم الذهاب إلى أبعد ممّا يتطلبه المنطق.

في يناير، تعرض مالكو ماخور في القصبة العليا وعمالته لمجزرة. ربما لأن جبهة التحرير الوطني سبق أن منعت الدعارة والخمور في المدينة العربية، وربما لأن القواد سي مسعود أعطى معلومات للجيش. وربما للسببين معا.

عندما وصل النقيب «دوغورس» إلى المكان، وفي صحبته رئيس الرقباء «مورو» وبعض الحركيين، كان رجال الملازم «هوراس أندرياني» يضعون في الشاحنة خمسة عرب أو ستة متورمي الوجوه. وكان يحيط بهم عدد من النساء الباكيات.

- كيف حالك أندريه؟ سأل الملازم.

حدّق فيه النقيب «دوغورس» بحنق.

- من فضلك استخدم رتبتي عندما تخاطبني، أيها الملازم.

ابتسم «أندرياني» وهو يتمتم بشيء غير واضح. اقترب النقيب من مجموعة المساجين.

- ماذا فعل هؤلاء؟ سأل أحد الحركيين من شعبة «أندرياني».

التفت الحركي إلى الملازم دون أن يتفوه بكلمة.

- هيا «بلقاسم»، أجب النقيب. قال «أندرياني».

- نومهم ثقيل جدا، سيدي النقيب. أو ربما لديهم فقدان ذاكرة. أو هم ربما صمٌّ. سنرى إن كان بالإمكان معالجتهم.

اقترب «بلقاسم» من المساجين وأخذ يصرخ فيهم بالعربية وهو يصفعهم ويركلهم. وكانت النساء يصرخن جميعا في الوقت ذاته.

- هيا بنا. أعطى «أندرياني» الأوامر. يومك سعيد سيدي النقيب.

رغم الحنق الشديد الذي كان يكتمه النقيب «دوغورس» إلا أنه لم يقل شيئاً. لم يكن لديه أي سلطة على «أندرياني»؛ كما أنه ما كان يستطيع، مطلقاً، الجزم بأن تلك الاعتقالات العشوائية لن تفضي إلى شيء. لم يقل شيئاً. دار حول الماخور متوقفا لبعض الوقت أمام الجثث.

*(حياة مقزّزة. موت مقزّز)*

عندما خرج ثانية، أمسكت امرأة عجوز بيده وأخذت تتحدث بسرعة شديدة ودموعها تتساقط.

- ماذا تقول؟

- تقول إن ابنها لم يفعل شيئاً، سيدي النقيب. شرح أحد الحركيين. تقول إن ابنها بريء وعليك إعادته. كما أنها تدعو لك.

*(على الجميع أن يتحدث. الجميع)*

سحب النقيب يده المبللة بدموعها وتنحّى جانبا بضع خطوات.

- قل لها إنه ليس بيدي حيلة.

* * *

- إن كان القبائلي قد سخر منا فسوف يتذكّر ذلك. قال رئيس الرقباء.

كانت سيارة النقيب قد وقفت للتوّ في شارع تيليملي. أظلمت السماء فجأة وكان هتان بارد يهطل منذ بعض الوقت. أخذت بوابة العمارة تنظر إلى العسكر بتوجّس. أكّدت لهم وجود عربي في العمارة يسكن الطابق الثالث اسمه السيد صحراوي، لكنه عربي مؤدّب ومتعلّم. ظهر عليها الاستياء لإمكانية الشكّ فيه بأي شيء كان.

- إليك ما سنفعله سيدتي: ستصعدين معنا وتقولين للسيد صحراوي إن هناك بريدا له. اتفقنا؟

- لا طبعا، أيها النقيب. لا يمكن أن أكذب على هذا السيد. في مهنتي الثقة لها...

- ستفعلين ما قاله لك النقيب، هيا حركي مؤخرتك الكبيرة. قال «مورو» رئيس الرقباء قاطعا الكلام. وإذا لم تفعلي أقسم أن ألقي القبض عليك، أنت وكل عائلتك. وعندها ستمارسين آداب السلوك في المعتقل. هل فهمت؟

فغرت فمها رعبا وأذعنت دون أن تنطق كلمة واحدة.

*(المنطق يحكم ونحن أسياد المدينة)*

صعدوا السلالم في صمت تامّ قدر المستطاع. وكان الإزعاج المكتوب لخطواتهم يترك لدى النقيب «دوغورس» انطباعا مؤلما لا يستطيع طرده. وفي الطابق الثالث أشار «مورو» إلى الباب بأصبعه الذي كان يحمل علامة التهديد وهو ينظر إلى بوابة العمارة. قرعت الباب. جهز

النقيب مسدسه.

- سيد صحراوي؟ يوجد بريد لك.

بعد فترة قصيرة انفتح الباب. ولن ينسى النقيب تلك اللحظة. أمضى فترات في تأمل هذا الوجه الموجود أعلى المخطط الهيكلي، في مكتبه، لدرجة لا يمكن أن يشكّ معها لثانية أنه هو. الغريب أن جسده هش وضعيف، وفي الوقت ذاته مستحيل أن يكون هو. الرجل الواقف على عتبة الباب رأى المسدس، ورأى الزي العسكري المموّه ومع ذلك تابع الابتسام وكأن الأمر لا يعدو أن يكون لقاء طارئا مع أصدقاء أعزاء لم يقابلهم منذ فترة طويلة.

- هل أنت «طارق الحاج ناصر»؟ سأله النقيب. أجاب الرجل «نعم» دون أن يتوقف عن الابتسام. كانت ابتسامة هادئة جدا وصادقة، لا يمكن لوهم أنها تحدٍّ أو سخرية، أن يغيرها.

- أنت «طاهر»؟ أصرّ النقيب.

- نعم، أيها النقيب. إنه أنا.

* * *

استدعى العقيد الصحافة للحضور في السادسة مساء. على الرغم من أنه طلب نصب فخ في ميدان تيليملي، إذ لدى «مورو» أوامر بإيقاف كل من قد يطلب رؤية السيد صحراوي، إلا أن النقيب «دوغورس» لم يكن لديه مهلة إضافيّة.

- ما رأيك «دوغورس»؟ سيعرفون حتى قبل أن يكتب الصحافيّون مقالاتهم. خلال الساعتين القادمتين ستجد الفخ الذي تنصبه وقد أحيطت به الحواجز. إذا كنت ستعتقل أحدا فليكن الآن، وإلاّ فأبداً. صدّقني.

انحنى النقيب «دوغورس»، وفي الدقائق التالية طلب «مورو» الإعلان عن القبض على شابة، تدّعي أنها ابنة أخ ترفض الإفصاح عن اسمها.

- رائع يا «مورو». ارجع ومعك قوّتك. ولكن اترك أحدا مّا إلى صباح الغد، لا نعلم ما قد يستجدّ.

ابتهج العقيد.

- عمل جيد، «دوغورس». حتى وإن كانت صدفة. ياه من تصاريف الإله للأمور. سيكون لهذا الحدث تأثير في أولاد البغايا هؤلاء. هيا، أرني «الحاج ناصر» هذا.

كان «طاهر» جالسا على فراش من القش. يداه مربوطتان وعيناه شبه مفتوحتين. يبدو كأنّه مستغرق بهدوء في أحلام يقظة، وابتسامته الغريبة لم تختف أبداً. بدأ العقيد عرضه كمحارب متسامح ومنتصر. أخذ يقطع الزنزانة ذهابا وإيابا وهو يتحدث عن العظمة والخدمة العسكرية، ويتكلم بأناة إعجابا بنفسه ويتساءل بصوت عال أنه، وهو العقيد، لو كان عربيا لفعل الشيء ذاته وأنه كان سيتبع الطريق ذاتها. كان يعرف دائما كيف يضع نفسه مكان العدو. قدّم التهاني «لطاهر» على أنه سبّب له الكثير من المشاكل. انتشى النقيب «دوغورس» بكلماته وهو يقسم في حماسة، لكنه كان خائفا من تلاقي عينيه مع عيني «طاهر» ويخفضهما تحت وطأة العار الذي أثقله.

*(إنه غبي. منذ القدم. غباء هذا الرجل يسبب الدوار. إنه كامل بصورة رائعة)*

سُمعت صرخة مخنوقة لامرأة لم تلفت انتباه العقيد.

- سأعود. قال النقيب «دوغورس» وهو يهمّ بالخروج من الزنزانة.

دخل قاعة في نهاية الممر. كانت امرأة شابّة ممدّدة على الطاولة، وقد ربط بساقيها معصما الفتاة وعقباها. كانت عارية، واثنان من الحركيّين والرقيب «فيبفاي» منكبّين عليها. كان الدم يسيل من أنفها، وقد أقحموا في فمها منديلا. نظر النقيب إلى نهديها، وإلى بطنها الشاحبة المدوّرة، وإلى شعيرات عانتها المجعّدة حيث تبرز كتلة داكنة تلمع لمقبض مسدّس آلي. يظهر أنّها انعزالية وغير متسامحة، ويبدو من تعابير وجهها وتلوّيها آلام مخاض مخيف. كان رئيس الرقباء «مورو» في إحدى زوايا الغرفة يدخّن سيجارة.

*(المنطق لا يعرف الحدود. مملكته ليس لها حدود. نار جهنم)*

- إنها مومس تيليملي. قال الرقيب «فيبفاي». نحاول أن نعيد إليها عقلها.

- ارفع هذا. قال النقيب وهو يشير إلى المسدّس المغروز في بطنها. ارفعه حالا.

نفّذ الرقيب الأمر.

- هل أنت معتوه يا «مورو»؟ سيصل الصحفيون ولم تجد سوى هذا لتفعله؟ ضعوا ملابس على هذه الفتاة ودعوها وشأنها.

- هل من الضروري فعلا إلباسها، سيدي النقيب؟ سأل «فيبفاي». هذا خطأ في حقّ الجديان هؤلاء، تابع وهو يشير إلى الحركيين، فقد تتغيّر أشكال العنزات اللاّتي يعاشروهن.

انفجر الحركيون ضحكا. تقدم النقيب «دوغورس» خطوتين صوب الرقيب ورفع يده كي يصفعه لكنه أوقف حركته وعادت يده برخاوة إلى جانبه. يعلم أنه ما كان عليه رفع يده، ويعلم أنه بمجرد رفعها لا ينبغي له خفضها. تكلّم بصوت غريب.

- سوف أقدّمك أمام مجلس الحرب، أيها القذر. أمام مجلس

الحرب، تسمع؟ سوف تعدم بالرصاص.

تقدّم رئيس الرقباء وأمسك النقيب بلطف من ذراعه.

– سيدي النقيب، حافظ على هيبتك: ماذا تقول؟

ظل النقيب دون حراك فترة ليست بالقصيرة. كان يجد صعوبة في تثبيت نظره على الرقيب. توجه إلى الباب في عجالة يكرهها.

– ألبسوا هذه الفتاة، يا «مورو». قال بصوت متهدّج. وَجِدْ للرقيب مكانا آخر يمكن أن يقدّر فيه حسّه الفكاهي كما يستحق. أيّ مكان، لا يهمني. فليختف عن نظري.

عندما خرج، استدار فجأة نصف استدارة ودخل القاعة من جديد. لم يتحرك أحد. اتّجه صوب «فيبفاي» وركله بركبته بين فخذيه. ركع الرقيب تقريبا دون ضجة، وانهال عليه النقيب «دوغورس» بالضرب بكل قوّته على صدغه. سقط الرقيب وركبتاه مثنيتان إلى صدره دون أن يظهر حركة واحدة لحماية نفسه. سحب النقيب «دوغورس» يده المتألمة. نظر إلى الرجل الذي يتأوّه عند قدميه. إنها، أوّلا، اللذة العاجلة للتنفيس ثم سريعا الشفقة، والندم. الضعف الذي لا يمكن وصفه.

أتى الصحفيون وغادروا. ابتسم «طاهر»، المقيّد، أمام عدسات الكاميرات. ابتهج العقيد لأهمية هذا الأسر الاستثنائية، التي ستوجّه دون شك ضربة قاصمة للمتمردين. أوضح العقيد للصحافيين أن باستطاعتهم طرح الأسئلة على السجين. ألا تخجل من استخدام النساء في اعتداءاتك؟ هل أنت نادم؟ هل أنت خائف من الإعدام؟ ماذا تقول لأهالي ضحاياك؟ لماذا تتابع معركة خاسرة سلفا؟ هل تلتمس عفو الجمهورية؟ استمع «طاهر» باهتمام إلى كل الأسئلة. نظر إلى كل صحافي بلطف شديد، غير أنه لم ينطق بكلمة. بالقرب منه،

كان النقيب «دوغورس» ينظر إلى مقدمة حذائه. لم يعد يحاول أن يتملص من تأثير العار. كان ينتظر فقط أن تنتهي هذه المهزلة. اعتقد أنه في اليوم التالي سترى «جان ماري» صورته في الصحف، وأنها على الأرجح، ستكون فخورة به. وإذا توجب أن تعرف، في أحد الأيام، ما كان يفعله حقا هنا، فإنها لن تستطيع أن تصدقه ولا أن تفهمه. وستكون محقّة؛ في نهاية الأمر، ورغم كل منطق العالم، الأمر صعب على الفهم ويفضل أن تظل زوجته جاهلة بذلك إلى الأبد.

*(كيف سأتمكن من أخذها بين ذراعي؟ كيف سأتمكن من احتضان الأطفال؟ ما الذي أستطيع قوله لهم؟)*

عندما تقابلا، ربيع 1945، كان عمره عشرين سنة ووزنه خمسة وثلاثين كيلوغراما. وكان عمرها يزيد عنه بعشرة أعوام. أرملة فقدت زوجها في الحرب. لعدة أشهر أعيى الضجر زوجها على خط ماجنو فكتب لها أنه يفتقدها. كتب أنه متلهف للقتال، وأنه يسمح لنفسه أحيانا بخيالات جريئة بعض الشيء عندما يتذكر برد الليالي التي تمر من دونها. في رسالته الأخيرة، كان يكرر أنه ينتظر الألمان بثبات، وأنه سيظل يحبها طوال حياته. لكنه لم يقاتل البتة، فبعد الهجوم، هرب تجاه الجنوب مع كل الرجال الناجين من وحدته، مذعورين ودون سلاح تقريبا. الأكيد أنه كان يأمل الوصول إلى طولون أو مرسيليا. إلى مكان مّا يستطيع أن يجد فيه مركبا يأخذه إليها في كورسيكا. في إحدى الليالي، وعندما كان مع رفاقه يرتاحون في أحد الحقول ودون حماية، معتقدين أنهم بعيدون عن الخطر، تمكنت ثلاث قاذفات ألمانية من تحديد مواقعهم. انقضّت عليهم مطلقة نيرانها. لم يقم أحد منهم. احتفظت «جان ماري» برسائله وصورة واحدة في زي رجال المدفعية وهو يمطّ شفته قليلا كأنه منزعج، كأنه يعتذر مقدّما عن موته دون

مجد، وعن وعوده بالحب الأبدي الذي كان من السهل عليه احترامه.

قدمت إلى باريس مع سلفتها للالتحاق «بجان باتيست»، أحد إخوتها الكبار. كان مسجونا عام 1940 وسيعود إلى فرنسا قريبا، مع العائدين إلى الوطن. كان «أندريه دوغورس» قد وصل للتوّ من معسكر اعتقال «بوشنوالد» الألماني. كان هزيلا جدا لكن حالته الصحية لا تثير قلقا كبيرا. كان ينتظر في فندق لوتيتيا للقاء والديه. كان يوميا يطالع لوحة إعلانات المفقودين. كان يحاول الأكل وينام. لم يكن لديه الرغبة في الحياة. في صباح أحد الأيام ظهرت «جان ماري أنتونيتي» بصحبة سلفتها في بهو الفندق. كانت تريد تقديم المساعدة. كانت، ربما، تأمل هي أيضا أن تعيد معجزة مّا زوجها إليها. أن تجده هناك، مريضاً لكنه حي، وسيكفيهما أن يستعيدا حياتهما الضائعة بكل سهولة، كأنّما استيقظا من كابوس.

كانت تنظر في المُرحّلين وهي تشعر بألم لا يوصف. عندما تلاقت عيناها مع «أندريه» شهقت بقوة وهي تكرر: يا إلهي، الصغير المسكين. كانت تعود لرؤيته كل يوم، تحدّثه عن زوجها الذي اختفى وعن إخوانها. كانت قلقة على الأصغر، «مارسيل»، الموجود منذ عام 1943 في مكان مّا من ألمانيا، سليما معافى، كما تتمنى. كانت تضحك وهي ترى «أندريه» يستعيد قوّته. وأخيرا وصل «جان باتيست» في كامل عافيته. بعد عدة شهور في المعتقل، كان محظوظا بنقله إلى مزرعة فتمكّن من الأكل كخنزير طوال فترة الحرب. تركته «جان ماري» يعود إلى كورسيكا مع زوجته. لم تكن تريد المغادرة طالما أن «أندريه» لم يجد والديه. بقيت معه.

في المساء عندما خلع ملابسها، سحبته إليها وهي تتنهد: يا صغيري، يا طفلي، وأطلقت لنفسها العنان مغلقة عينيها. كانت

بشرتها رقيقة ومنتعشة، وحتى لو لم تكن لها بشرة فتاة شابة فإن «أندريه» لم يكن ليعرف مطلقاً. إنها المرأة الأولى التي يأخذها بين ذراعيه. تزوّجا بعد بضعة أشهر في كنيسة بقرية «جان ماري». لم يكن والداه سعيدين برؤيته يتزوج امرأة أكبر منه سنا، لكن يبدو أن ما عاناه في حياته يعطيه الحق الآن في التصرف دون الاهتمام برضا والديه. كانت عائلة «جان ماري» بأسرها تلقي نظرات الإعجاب بزي كلية سان سير العسكرية وهو يثني رجليه أمام الهيكل. كان قلبه يلهج بالشكر لله عرفانا بالفضل على تفريج كربته. بعد سنة واحدة رزق بطفلة وعندما توفيت زوجة «مارسيل» وهي تلد في مكان مّا على نهر النيجر. أخذت «جان ماري» الطفل الصغير كي يتلقّى التربية التي لا يستطيع أخوها ضمانها لوحده، ولكي لا يحرم الصغير من وجود المرأة الضروري لنموّه. كان ينبغي لمارسيل أن يستعيد جاك، ابنه، بعد ذلك بفترة لكنه لم يفعل، ولم يطرح بتاتاً إمكانية ذلك. ومنذ الزواج أمضى النقيب «دوغورس» من الوقت بعيدا عنهم أكثر ممّا أمضاه بينهم. شعر بأن الأطفال كبروا بفورات متواترة ومفاجئة. عندما عاد من الهند الصينية، بعد اعتقاله هناك، وكان وزنه يزيد قليلا عما كان عليه بعد الإفراج عنه من معتقل «بوشنوالد»، لم يتمكن من التعرف عليهم. وانخرطت «جان ماري» في البكاء عندما رأته في ذلك الصباح الربيعي من عام 1945، كما حدث في بهو فندق لوليتيا. لكنه كان يفكر فيهم دون توقف، وتصرف دائما بطريقة لا تجعلهم يخجلون من اسمه. يعلم أن الوضع اختلف الآن. يشعر أنه بعيد جدا عنهم ومع ذلك يخاف من الظل الكريه لذنبه أن يصلهم.

قال بحزم للعقيد الذي أخذ إجازة ابتهاجا بالسير الجيد لمؤتمره الصحفي، إنه لن يمس شعرة من رأس «طاهر».

- لم يطلب أحد منك ذلك، يا «دوغورس». أجابه العقيد بنبرة جافة.

- لا يؤدي ذلك إلى شيء، سيدي العقيد، لا يوجد شخص آخر أعلى منه كي يقودنا إليه. حقيقة، لا فائدة ترجى من ذلك.

- حسنا، افعل كما يحلو لك، يا عزيزي، ولا تزعجني بهذا الموضوع. هذه ليست مشكلتي.

*(أيها الغبي التعيس، غبي تعيس ممقوت ودعي)*

بمجرد أن غادر العقيد، ذهب لرؤية «طاهر» في زنزانته.

- أنا آسف. قال النقيب «دوغورس». آسف أنك اضطررت لتحمّل كل هذا. الصحافة، والعقيد.

انفجر «طاهر» ضاحكا.

- نعم. قال النقيب وهو يضحك أيضا. خاصة العقيد، أليس كذلك؟

جلس في مواجهة «طاهر»:

- أود أن أخبرك أنه لن يلحقك أذى.

- أنا لا أريد فضلا من أحد، أيها النقيب. أنا على أتمّ الاستعداد لتلقي ما يتلقاه رفاقي من معاملة.

- هذا ليس فضلا. لا علاقة له بالأفضال. إنها مسألة... مسألة منطق بسيط. هذا هو الأمر. لا يمكن أن تعترف على نفسك، أليس كذلك؟

- أفهم ذلك.

بقي النقيب «دوغورس» صامتا لفترة ليست بالقصيرة. خالطه شعور عجيب بالسكون. لم يكن لديه الرغبة في المغادرة.

- أتعلم، لقد عشت معك أسابيع طويلة. صورتك في مكتبي، كل يوم

كنت أراك. من الغريب التفكير في أن كل هذا انتهى.

نظر «طاهر» إلى النقيب والفضول يتملكه.

- لكن لم ينته شيء، أيها النقيب. إطلاقاً لم ينته شيء.

- كيف لم ينته شيء؟ إنها مسألة وقت فقط. أنت تعرف ذلك مثلما أعرفه.

- تتحدث مثل رئيسك العقيد. قال «طاهر» بلطف. الضربة الموجعة للمتمردين وما إلى ذلك... لكن هذه ليست الحقيقة.

- ماهي الحقيقة؟ سأله النقيب.

- الحقيقة أكثر تواضعا، أيها النقيب. قال «طاهر» وهو يميل صوبه. الحقيقة أنني أنا الذي انتهيت، فقط أنا. وهذا ليس له أي أهمية لأني لست في الحسبان.

لم يكن في صوته أي استعراض، ولا انعطاف يفضح عجرفة من أي نوع، أو أدنى رغبة في الحصول على الإعجاب. عبّر، ببساطة، عن واقع. تمدّد على فراشه وأغلق عينيه مطلقا تنهيدة وكأنه يستعدّ للنوم. لم يتمكن النقيب من منع نفسه من مزيد التأمل لسرّ ابتسامته. وقف.

- سوف أعود لرؤيتك غدا. إذا كنت في حاجة لأي شيء، لا تتردد في إخباري.

- أحتاج حريتي. قال «طاهر» بظرف.

- كنت أتحدث عن شيء أستطيع منحك إياه.

* * *

«أندريه، طفلي، حبيبي، إننا نفكر فيك كثيرا. طفلتنا الصغيرة «كلودي» لا تتوقف عن سؤالي إن كنت تستطيع حضور عيد ميلادها معنا. هل تعتقد أن بإمكانك الحضور؟ أعلم أنك تفعل كل ما في

استطاعتك ولكنها ستكون سعيدة بوجودك، وأنا كذلك. اكتب لي ما ينبغي لي أن أجيبها به. اليوم، كان الجو صحواً جداً، فاصطحب الطفلين عمهما «جان باتيست» إلى الشاطئ لأكل قنفد البحر. لذلك بقيت وحدي في المنزل مع والدتي ولا شيء يمكن أن يلهيني عن التفكير الجميل فيك. أندريه، طفلي...»

أثارت فيه كلمات «جان ماري» عواطف مفرطة تماماً، وكأن كل من يحبهم ماتوا منذ ألف عام وأنه اكتشف، للتوّ، الأثر الأخير لمرورهم على الأرض. تلاشى المستقبل واختفى. لم تعد زوجته سوى هباء استدعت، من قعر القبر وبقسوة غير مسبوقة، عيد ميلاد طفلة ماتت منذ فترة طويلة. قطع النقيب «دوغورس» قراءته. طالع بشرود إحدى رسائل والديه، ثم أخرى من «مارسيل»، أخي زوجته الذي، ومنذ شواطئ النيجر اللعينة، اختاره ليكون مؤتمنا على وساوسه الكئيبة ويصرّ على أن يغرقه بالرسائل البائسة، المزدحمة بأشعاره البهيمية البغيضة التي يصفها بتفصيل يثير القلق؛ من طفيليّات في العيون والكبد، وكائنات تأكل لحوم البشر، ووحوش تترقّب في الرطوبة الاستوائيّة، وزنزوج تسكنهم الشياطين. لا يتوقف عن البكاء على ضياعه القادم، وعلى ابنه الذي لن يراه. في كلّ رسالة جديدة يشرح «مارسيل» أنه نجا بأعجوبة من مرض قاتل وذلك لأنه تمكن، في اليوم ذاته، من اكتشاف أعراض المرض الذي كان سيفتك به. ووصل الأمر بالنقيب «دوغورس» أن يتمنّى له، تقريبا، أن يحصده الموت مرّة واحدة.

«أندريه، طفلي. لا يمكنك أن تتخيل إلى أي حدّ أفتقدك. أحلم كثيراً أن هذه الأحداث الرهيبة انتهت وأنك عدت بيننا. أنا على يقين من أنّ هذا اليوم سيأتي، ربّما قريبا. أندريه لا تنس أنّ حياتك غالية وأنّ...»

– سيدي النقيب، رجال «أندريانى» هنا.

- أنا قادم حالا. كم سيأخذون من عندنا الليلة؟
- اثنين، سيدي النقيب. القبائلي وفتاة تيليملي.

سجناء النقيب ليسوا سوى عابرين؛ بعد عدّة أيام أو ساعات يتركون المكان للقادمين. يتم إحضارهم ثم يقادون إلى معسكر ترحيل، أو يحالون إلى النيابة، أو يتم تسليمهم إلى الملازم «أندرياني». يجهل النقيب «دوغورس» القواعد التي تسبق هذه الخيارات. وربما لا يوجد أي قواعد. إنّ عدد السجناء كثير جدا وهو ما يجعل من المستحيل مباشرة كل حالة على حدة. ربما هي مهمّة آلية عمياء وعشوائية ونهائية كالقدر. توقّفت شاحنة مغطّاة في الطريق الخاوي. كان الجوّ باردا والقمر المائل مكللا بهالة من الضباب. ورجال «أندرياني» يثرثرون مع رئيس الرقباء «مورو». تعرّف النقيب «دوغورس» على الحركي «بلقاسم» والمنتدب الشاب الذي يعمل سكرتيرا لدى الملازم. يبدو مخادعا. ألقوا التحية على النقيب الذي ردّ بهزّ رأسه في إشارة مبهمة. أتي بعبد الكريم والفتاة. أركبهم «بلقاسم» في مؤخرة الشاحنة. انتفض «عبدالكريم» وعيناه مسدلتان، والفتاة تنظر للنقيب وفي عينيها شيء عصي على الفهم. واختفت الشاحنة في سواد الليل.

- وعند «أندرياني»، سيدي النقيب، هل تعتقد أن الفتاة ستلهو؟
سأله رئيس الرقباء.

- لا أعرف شيئا، يا «مورو». وهذه ليست المشكلة. ما يحدث عند «أندرياني»، لا حيلة لي فيه.

* * *

«أندريه، لا تنس أن حياتك غالية وأننا نحبك أكثر من كلّ شيء. لا تعرّض نفسك للخطر دون فائدة. فكر فيّ. فكر فينا. ورجاء، ولا

تعتبر هذا عتابا، ولكن إذا وجدت الوقت اجتهد في كتابة رسائل أطول قليلا وأكثر تفصيلا. لا شيء ممّا تقوم به سيكون مملاً لنا، والأطفال يريدون، على وجه الخصوص، أن...»

لم يعد النقيب قادراً على التركيز في القراءة. لم يعد متأثرا. تدخل الكلمات ذهنه بصعوبة فينتهي به الأمر إلى التخلي عن المتابعة. وضع الرسالة في أحد الأدراج، مع رسائل والديه، وألقى ببريد «مارسيل» في سلّة المهملات. كان يعتقد أنه إذا ذهب إلى الفراش الآن، قد يتمكّن من النوم. لكنه يعلم أن ذلك ليس سوى إحساس خادع. أخذ ورقة وشرع في الكتابة. يبحث عن كلمات مرهفة، والكلمات تهرب.

*(لم يعد هناك كلمات للإله. لم يعد هناك كلمات لأقاربي)*

فتح النافذة وأخذ يدخن سيجارة وهو ينظر إلى القمر. كان يأمل أن يكون «طاهر» ينام في سكون. في الواقع، هو لا يشكّ لحظة في ذلك. وكان يفكّر في سجينه بحسد وضغينة غير مفهومين. عاد إلى مكتبه، ودون حتّى أن يجلس، كتب: «حبيبتي الغالية، أطفالي الأحبّاء، للأسف أنه من المتوقع ألا أتمكن من الحصول على إجازة لحضور عيد ميلاد «كلودي». هنا، لا شيء يذكر. كل شيء يسير على نحو جيّد. أحبكم جدا». سجّل عنوان «جان ماري» سريعا على الظرف وألقاه على كومة البريد الجاهز للإرسال. في غرفته، لم يكلف نفسه حتّى عناء أن يجثو على ركبتيه ليصلي صلاة المساء. جلس على سريره، فتح الكتاب المقدّس. قرأ: «ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صعد من الأرض إليّ». تصفّحه مرّة أخرى قبل أن يعيد إغلاقه. كان جاهزا لأن يترك نفسه تنقاد بين الأرق والأحلام التي لا يريد رؤيتها.

كيف سأنساك، سيدي النقيب، أنا الذي أحببتك جدّا، أنا الذي أحببتك كثيرا مع أنّي أحتقرك اليوم، وأحتقرك لدرجة اعترافي دون

خجل كم كنت أحبّك. آه، كم كنت أحبّك كأخ، أخ فاتن بشبابه وبطولته. أتذكّر جيدا يدك على كتفي، في شهر مايو 1954، أثناء مرورنا جميعا في زمرة طويلة من الأشباح تحت أعين المنتصرين علينا. كانت تلك نهاية العالم، سيدي النقيب، لم نكن أكثر من بقيّة مزدراة في إمبراطورية منهارة. لكن يدك على كتفي وقتني من الوقوع في اليأس لعدم الموت في الحرب. وكنتُ سعيدا، أتذكّر ذلك جيدا، كنتُ سعيداً لبقائي حيّا وقادراً على السير بجانب رجل مثلك، رجل يرفض أن يخفض عينيه، كما كان يفعل رفاقنا، عند المرور أمام الكاميرا التي كان العاملون الروس يميلونها علينا كي يشهد العالم أجمع ذلّنا، ويستطيع الضحك على كبريائنا القديم. لأنه لم يبق حينها شيء من كبريائنا، سيدي النقيب. فحينما كنا نتقدم متعثّرين في أدرعتنا الوحلة، وعين الكاميرا الفاجرة تجعل جروحنا أكثر إيلاماً، وخروقنا المضرّجة بالدماء التي كانت زيّنا في القتال، باعثة أكثر على الاشمئزاز، لم يبق شيء من شجاعتنا. لم يبق شيء منّا، وبصدق كان خفض العيون هو الشيء الوحيد الذي ما يزال باستطاعتنا فعله. لكن أنت، سيدي النقيب، بمجرد أن أصبحنا في نطاق الكاميرا رفعت رأسك، وركّزت نظرك على العدسة، ثمّ وضعت يدك عليّ وقلت: ارفع رأسك، يا هوراس. انظر جيدا إلى هؤلاء الأوغاد، انظر في وجوههم جيدا، فلا يوجد ما تخجل منه. فجأة شعرت بالفخر الكبير، سيدي النقيب، بالفخر لوجودي بجانبك، حتى أن فرحة غير مفهومة للبقاء على قيد الحياة كادت توقف أنفاسي. كنت أحبّك، سيدي النقيب، وبدوت لي حينها أروع ممّا تمنّيت وأنا أستمع إلى صهرك «جان باتيست أنتونيتي» وهو يحدّثني عنك، في اليوم السابق لإنزالي في ساحة القتال، في تلك الخمّارة في «هانوي» التي يرتادها مواطنونا لمشاركة أحقادهم

وحنينهم. الخمّارة التي أمضيت فيها أسابيع طويلة من الانتظار وأنا أشرب ذلك الخمر السيّئ، الذي كان يسقي أحلامي بالمعركة والدم، أحلامي بالموت، سيدي النقيب، في حين كان «جان باتيست» يحدّثني عنك، بين ذكرى صورتين غبيّتين لأرض طفولتنا العاقّة التي لم نتمكن من كرهها. فيخبرني عن قوّتك وبسالتك. كان يشكر السماء التي أتاحت لأخته أن تلتقي برجل مثلك، وكأنّ عائلته بأكملها أصبحت من النبلاء بمجرّد وجودك، وكأنه هو نفسه، بفضل قرابتك، تجاوز وللأبد وضعه كرقيب قطار، منهيا مسيرة مهنيّة حقيرة. كان يقول إنك لم تمت في «ديان بيان فو» لأنّك من أولئك المناضلين في الحياة، الصامدين في وجه أعتى الفضائع. وكان يكفيه، دون شك، أن يحتسي كأسا أخرى حتّى يتنبّأ أنّك لن تموت أبداً. انتظرت وقتا طويلا للحاق بك، سيدي النقيب. ليلة بعد ليلة في تلك الخمّارة في «هانوي»، وتحت أمطار الرياح الموسميّة الغزيرة، التي كانت تحمل حثالة حنيني الكاذب. كنت نسيت عائلتي، وتخلّصت من كل ما كان يربطني بالحياة، كل ما كان يقيّدني. أصبحت نقيا ومستعدّا، والحرية التي شعرت بها عندما صعدت في ناقلة الجنود الأمريكية، التي ستأخذني أخيرا إليك، لم يسبق لي أن عهدتها.

احتضنني صهرك «جان باتيست» بقوّة طالبا مني نقل سلامه إليك. نظر إليّ مرّة أخيرة، بالحنان المشوب بالخوف الذي نخصّ به المتوفّين. لم يربكني ذلك. أخذت مكاني في الطائرة، مربوطا في مظلّتي بجانب غرباء. كنا سعداء جدا وكأننا في طريقنا إلى حفلة. لم يعد لدينا حينها إيمان بشيء آخر سوى جمال التضحية غير المجدية. كنا منتشين بتصوّر موتنا القادم، سيدي النقيب، وكنا سعداء لأننا كنا نعلم أن هذا الحماس الذي يجعل الموت مرغوبا فيه هو أعلى

نعمة يمكن للإنسان أن يصبو إليها. الطلقات الأولى لمدافع الدفاع الجوي خلخلت قمرة القيادة. انفتح الباب وكنا نطير منخفضين جدّا، لدرجة أني شممت الرائحة الرطبة والرقيقة للمجزرة، ونحن نقفز في السماء الممطرة. مازلت أذكر المفاجأة، ويمكن أن أقول لك اليوم إنّني أذكر خيبة الأمل كذلك، حين رأيتك أوّل مرّة، سيدي النقيب. أتذكّر ذلك تماما. إنّ حكايات «جان باتيست» جهّزتني للقاء بطل أسطوري خارق من ذوي الأذرع البرونزية الخارجة من أحد أنهار جهنّم، وليس للقاء الملازم النزق والمكتئب الذي كنت حينها. كنت تبدو هشّا، سيدي النقيب، وأذكر أنك هززت رأسك بحزن وأنت تقول: ما الذي أتى بكم إلى هنا؟ ما الفائدة؟ كلّ شيء انتهى، هذه بلاهة عبثية، عبثية وإجرامية. جرحني أنك لم تعترف بالجميل لأولئك الذين قدموا ليموتوا معك. والواقع، أنك قد جرحتني مرّات عديدة، سيدي النقيب، دون حتّى أن تدرك ذلك. قلت لك إنّ «جان باتيست» يرسل لك قبلاته. أجبتني بأن هذه المهمّة تبرّر تماما حضوري. وفي خضم الضجيج والرائحة الكريهة ابتسمت لي. صرخت تعرّفني على الناجين من أفراد فرقتك، ها هو الملازم «أندرياني» الذي شرّفنا بالحضور لمشاركتنا مصيرنا. أشار إليّ عريف مضموم الذراعين بتحيّة مبهمة دون أن يتوقف عن العبث بالراديو. أمّا الآخرون فلم يكلّفوا أنفسهم حتّى النظر إليّ. كانت مدفعيتنا تقصف عشوائيا عبر الضباب، منحدرات الجبال المحجوبة عنا. وكان فيضان من المطر والفولاذ ينهمر علينا بانتظام عنيف. وكانت أرض المعركة حولنا، تبدو وكأنها محيط هائل من الطين بزوابعه وارتفاع أمواجه الثابتة التي كانت تجرف بقايا الأجساد والمعدن. بالقرب منا كان أحد المصابين يتألم بصوت خافت ذكّرني بنعيب البومة في ليالي أغسطس عندما

كنت طفلا. سمعت الصرخات بكل لغات العالم. ظهرت يد سوداء من طرف الحفرة وكأنها تريد الإمساك بشيء لا يمكن تحديد معالمه. حاولت أن أردّ عليك ابتسامتك ولم أكن خائفا من الموت، مطلقاً، لكنّي قلت بصوت خافت، هذه جهنم. أتذكّر ذلك جيدا، هذه جهنم. قلتها بصوت مرتبك، لم أسامح نفسي عليه. قلت لي: «لا أيها الملازم، هذه ليست جهنم وإنما الضيافة التي أعدّتها لكم عشيقات العقيد «دو كاستري»: «بياتريس»، و«إيزابيل»، و«آن ماري»، و«جابرييل»، و«كلودين»، و«إليان»، وكل النساء اللاتي يخالطن ذاكرة قائدنا لدرجة أنه أطلق أسماءهن على المواقع التي كان ينبغي علينا الموت فيها.» فيم ستفكّر كل هؤلاء النسوة، سيدي النقيب، اللاتي لن نعرف نهائياً وجوههن، وهن يشاهدن عشيقهن العجوز ينزّه أنفه الأرستقراطي الطويل وظله المحنيّ، في هذه المتاهة من الخنادق العفنة وسط جيشه الرابض بين الموت والحياة؟ كيف سيتمكنّ من التعرف على ذلك الذي ضرب لهن موعدا سرّيّا في غرفة منوّرة بنوافذ مفتوحة على ربيع باريس ويفرك صديريته القرمزية بجسارة، في زي الفرسان، على نهودهن العارية؟ فكّرت كثيرا فيهن، سيدي النقيب. فكّرت فيهن تحت قصف النار المستمر. كنت أتخيل أجسادهن المعطّرة الممتدّة في دفء ملاءات السرير، وملاطفة أيديهن. وكنت أشعر أن الأرض التي كانت تبتلعنا احتفظت بشيء منهن. وأن الوحل الرطب، كأيديهن، يهز المحتضرين بلطف قبل أخذهم إلى أعماق لذّتهن، حيث لا شيء يستطيع الوصول إليهم. لذلك كان القتال سهلا، والموت مغريا، ولا أعرف كيف تمكنت من نسيان اسم المرأة الذي يحمله الموقع الذي كنت أدافع عنه، ليلا ونهارا بجوارك؟ هل كان «إليان»، سيدي النقيب؟ أم «هوغيت»؟ أكان «دومينيك»؟ لم أعد أتذكّر. أنا الذي أتذكّر كل شيء

نسيته، سيدي النقيب. كما نسيت اسم العروس الجزائرية التي ذبحت بعد ذلك بسنين على قارعة طريق طويل مقفر بين «بشار» و«تاغيت». إن ذاكرتي ترفض الاحتفاظ بأسماء النساء. هو كذا الأمر، سيدي النقيب. لشدة ما أفكّر فيهن تمّحي أسماؤهن. لم أعد أذكر هل كان اسمها «كاهنة»، أو «لطيفة»، أو «وسام». لكني أعرف أنّ رجالا كانوا كأنهم إخوة لصديقك «طاهر» هم الذين قتلوها. ونثروا في النبار كل قطعة من جهاز عرسها. أحذية مذهّبة مبهرة لها كعب طويل، ملابس داخلية من قماش اصطناعي ومخاطة من اللؤلؤ الصناعيّ، وفساتين مزركشة بألوان صارخة. وكل الأواني الفضية المزخرفة، التي كان من المفترض أن يلحقها السواد في قعر درج من أدراج منزل الزوجية، ولكن غطتها رياح الصحراء بالتراب. قرأت اسمها في الصحف وأنا أحتسي الويسكي تحت ظلال ياسمين سان جورج، كما كنت أفعل في أيام شبابي المنفلت، قبل أن أطلب من سائق سيّارة الأجرة أن يأخذني إلى منزل العائلة الذي اختلقته. وقرأت اسمها، سيدي النقيب، وأنا أقسم ألا أنساه أبداً، وها أنا لم أعد أتذكره. لم تكن شابّة تماما، هذا أتذكّره جيدا. كانت تتجاوز الثلاثين بقليل. جالسة بجانب عريسها المقحم في كسوة جديدة، والعرق تحت مكياجها. وفيما كان جميع المدعوّين يصفّقون ويغنّون «سأموت من أجلك، سارة، أنت حياتي سارة»، كانت حتما تفكّر وهي تحمرّ خجلا من تلهّفها أن دمها أخيرا سيراق. لكن ليس بتلك الطريقة، سيدي النقيب. ليس كما حدث تلك الليلة، بين «تاغيت» و«بشار»، على تلك الطريق التي نعرفها جيدا. إننا نعرف العالم، سيدي النقيب. لن نهرب من وسخ الدم، لن نخرج منه مغفورا لنا أبداً. هذه لعنتنا وعظمتنا. يؤسفني أن أكرر ذلك عليك، أنا الذي فهمته ربما منذ تلك الليلة الحاسمة عندما كان عمري ستة عشر

عاما والتي بيّنت لي دفعة واحدة ما ستكون عليه حياتي.

كان ذلك نهاية خريف 1942، سيدي النقيب. أتذكّره جيدا. وجدنا، ابن عمي وأنا، جنديا إيطاليّا يتسكّع حول السياج المهترئ الذي تربّي فيه أمّي ثلاث دجاجات هزيلات. كان يكبرنا قليلا في السن، ويرتجف من الخوف. كان جائعا، سيدي النقيب، لكننا شعرنا بالخزي من محاولته سرقة القليل الذي نملكه. وكنا سعيدين لأنّنا وجدنا أحدا مّا نجعله يدفع ثمن بؤسنا. حتّى أنّنا قتلناه دون تفكير، بضربة معول وفي حالة من الحماسة غير الطبيعية. جررنا جثته بعيدا عن منزلنا قدر المستطاع، خارج القرية. كانت معه صورة فتاة كئيبة الوجه ورسالتان مزقناهما دون أن نقرأهما. أخذنا بندقيته ومحفظته وشارته وقنابله اليدوية. انطلقنا نجري صوب أدغال «ألتا روكا». كنا نجري بلا توقف حتى كادت أنفاسنا تنقطع. أخذ ابن عمي ينوح، دون مبرر: «ماذا فعلنا، يا هوراس؟» ماذا سيكون عليه حالنا؟ لم أجبه لأن الأمر لم يكن يهمني. كانت يداي ملطختين بالدم، والحياة التي عرفتها كانت قد انتهت. ومن جرّاء ذلك، لا أشعر بفرح ولا بندم. اكتفيت بالجري وكنت على علم أني سأتبع هذا الطريق حتى النهاية، بخنق همسات قلبي. وقد تبعته، سيدي النقيب. تبعته إلى سبتمبر 1943 في «كول دو باسينو» عندما سمّرت المدافع الرشاشة لفهرر الرايخ ابن عمي في الأرض، قريبا جدا منّي، دون أن تسمح له أن يترك لي، على سبيل الوداع، سوى قليل من دمه على خدي. وتبعته إلى «جيب كولمار»، في يناير 1945، وإلى ألمانيا، و خلف البحار، وتحت الأمطار الموسمية. تبعته حتى وصلت إليك، سيدي النقيب. إليك أنت الذي أحببتك كثيرا. كنت أنظر إليك وأفكر في أنّه يكفيني الموت هنا كي تكون حياتي كاملة. آه، كم كنت رائعا، سيدي النقيب. من الصعب

الاعتراف اليوم، لكنها الحقيقة. لقد كنت محاطا بهالة كبيرة من الإجلال، الإجلال النقي تماما، في كل حركة من حركاتك. كان الجنود الفيتناميون يحفرون خنادق دائرية حول مواقعنا، من أجل عزلها وهدمها واحدا تلو الآخر. «آن ماري»، «مارسيل»، «إليان»، وكل يوم يأتي من جهاز الإرسال أصوات رفاق لا نعرفهم يقولون: «إنها النهاية، الوداع أيّها الرفاق، الوداع.» أصوات مليئة بالحزن والهيجان، وكنا نردّ: «فلتتحلّ بالشجاعة، الوداع، الوداع، ونحن ننتظر دورنا.» وعندما حان دورنا، طلبت بكل بساطة: «لماذا نجعل مهمتهم سهلة؟» وأخذنا نزحف باتجاه ضجّة المجرفات المبلّلة وهي تغوص بانتظام في الأرض المشبعة بالمياه. ألقينا قنابلنا اليدوية كي ننزلق خلفك في الخندق واشتبكنا بالأجساد والأيادي، وضربات السكاكين، وبالأسنان، تدفعنا نشوة عجيبة لا يمكن أن أنساها. عندما استرددنا أنفاسنا، تمكنا من رؤية أن قتلاهم لم يكونوا يتجاوزون الخامسة عشرة أوالسادسة عشرة من العمر. كانوا ملقين في الطين، نحيفين وهزيلين. وكان الموت يجعلهم يبدون كأطفال صغار جداً يلف العبوس العابر وجوههم. أزلنا الدعامات فسحب الطين الجثث. وانسحبنا. أعدنا ذلك من جديد في كلّ الأيام، وفي كل مرّة كان لدي الشعور أني، أنا أيضا، سأجد وقلبي يخفق، عشيقة متزينة سترضخ قريبا. عندما وافقت قيادة الجنرال «جياب» على مهلة محددة، شددت على يدي، وكرّرت بصوت خافت: «لماذا نجعل مهمتهم سهلة؟»، أليس كذلك؟ وذهبت لتجلس في مكان بعيد بعض الشيء، وأغمضت عينيك. لا، تلك لم تكن جهنم، وشعرت أني مفعم بحب كبير لكل الرجال المنهكين المبللين، النائمين حولي، في الأغطية القذرة. وكان حبي الأكبر لك، يا أخي، يا سيدي النقيب، لأنك كنت منبع شجاعتهم وجمالهم الغريب. وكنت أعلم أنهم، من دونك،

كانوا سيخبون كنجوم انطفأ نورها. لا تستغرب، أرجوك، فمن حقي أن أطلق عليك «أخي»، فقد ولدتنا معا المعركة ذاتها، تحت الأمطار الموسمية، وظلال النساء الجذّابات اللاتي انكببن علينا. ولا أزال أريد أن أناديك هكذا. بعض الأشياء لا يمكن نقضها حتى بالاحتقار. كنت أحب عزلتك وصمتك، يا أخي، يا سيدي النقيب. كنت أحب ظرافتك، بل وقد أحببت ورعك. أنا الذي كنت أعرف أنّ خلف سحب الأمطار الموسمية كانت السماء العريضة فارغة، والعالم أعمى. وكنت أرافقك إلى القدّاس حيث كنا نستمع، تحت المطر، إلى عظة الخطيب المتوّحش، الذي كان يرفع كأسه خلف هيكل من الألواح ذي القواعد الصدئة، دون مبالاة بصفير قذائف المدفع 105. وينظر إلى الركوع الجماعي لرقاب الجنود الباهتة، كما لو أن ثقلا من الملاطفة الحنونة غير المرئية لوتهم صوب الأرض. كنت أحاول أن أخمّن صلواتك. ما الذي كان يستطيع أن يعطينا إيّاه أيضا؟ كنا حيوانا ميتا كبيرا وقابلا للقتل، انتزع منه كل لحمه، قطعة تلو الأخرى. ولكن من في «هانوي» كان يرفض إرسال عون لا طائل من ورائه! عون كان سينزل من السماء، وفي الوقت ذاته، عشرات الآلاف من الميداليات والشهادات ورسائل الحب المكتوبة بأيدي غرباء، وقرارات الترقيات، وزجاجات الشمبانيا، والنجمة البرّاقة التي تقدّم شكرها للعقيد «دو كاستري» للسماح بربط اسمه وأسماء النساء اللاتي عشقهن، وللأبد، بهذه المجزرة، وشريط رتبتك كنقيب، والوسام الثاني المذهب الذي كان سيمنحني امتياز الموت تحت جلد ملازم في الخدمة...، ذلك، وكل الأشياء السخيفة التي كانت ستنير احتضارنا كألعاب نارية.

عندما وصلنا أمر وقف إطلاق النار، بعد الظهر، هبط الصمت علينا فجأة. أتذكّر ذلك جيّدا. لم أكن ميتا ونسيت ماذا يعني الصمت.

أصبحت حياتي، على حين غرّة، غير قابلة للتبرير. كسرنا أسلحتنا وربطنا أغراضنا في قطع من قماش المظلاّت. خرج الجنود الفيتناميّون من الضباب. تجمهروا معنا على ما كان يستعمل كأرض طيران، بين الحفر التي خلّفتها القنابل، والممتلئة بالماء الأسود. كانوا موزّعين حسب الرتبة. كان الروس يضعون كاميراتهم. وبعيدا، بعض الشيء، كان الجنرال «دو كاستري» يصعد في شاحنة مع مجموعة من الضبّاط ذوي الرتب العالية. مشينا أسابيع في الغابة، تحت أغصان الأشجار الطويلة التي كانت رؤوسها مربوط بعضها ببعض بخيوط. اجتزنا أنهارا عديدة، وعبرنا قرى تحت وابل من البصقات. مررنا دون توقف أمام الجرحى الجالسين على قارعة الطريق، وهم ينظرون إلينا بأعينهم الفارغة سلفا والباردة كالزجاج. وقد فهمت قبلي، سيدي النقيب، أن من تركهم هناك هم رفاقنا، فهمت ذلك سريعا ورأيت الغمّ الذي كسا وجهك في حين كنت تكرّر على مسامعي: «انتبه لنفسك، هوراس، الآن أكثر من أي وقت سابق، فأنت تجهل ما يجب عليك مجابهته.» واستمرّ سيرنا إلى أن وصلنا معسكر إعادة التأهيل. وصلنا سريعا لأننا تركنا رفاقنا يموتون على الطريق. لم يكن هناك أي سياج حاجز. فقط غياهب الغابة. كنّا نلمح في كل مكان تقريبا أكداسا من التراب، وبعض الجنود الفرنسيّين الناجين من معركة (ر س 4)، كانوا ممدّدين كهياكل عظمية على لحاف مبلل. كنا مجموعة من أربعين ضابطا متداخلين، وكانت تلك نهاية العالم. لم يعد هناك شيء يربط بعضنا ببعض. لم أكن قادرا على تحمل ذلك. حلّت إمكانيّة النجاة محلّ الموت اليقين، وتحولت إلى رغبة جامحة ومتسلّطة. رغبة بغيضة مسحت كل شيء: الشجاعة، وكرامة اليأس، والماضي المشترك. واضطررت أن أستمع، منذ اليوم الأول، إلى النقيب «ليستراد» الذي

كان يحلق كل صباح، بعناية، مستخدما قطعة صغيرة من شفرة حادة، كي يصون شرفه كضابط فرنسي، وهو ينصحنا بقبول عرض الفيتناميّين، وأن يوزّع نصيب الأرزّ لكل واحد بحسب الرتبة. قلتَ ببساطة، وبصوت لا يكاد يسمع، إنّكَ لم تشعر بالجوع الشديد نهائياً، وإنّكَ تكتفي بحصّة من الدرجة الثانية، مهما كان القرار الذي سيتّخذ. قلتُ: وأنا كذلك. أحد ضباط الصفّ الذي كانت شارته اللامعة تبين أنه مترقٍّ حديثا، قال: وأنا أيضا، حصّة من الدرجة الثانية. تعرّفت مباشرة عليه من لهجته. وبعد قليل، تكلّمت أصوات أخرى، وكنت أعرف أنها كانت ستظل صامتة مرتاحة لو لم تتكلّم أنت. أمّا النقيب «ليستراد» فقد خفض عينيه في صمت. ذهبت لأرى صفّ الضابط وسألته من أين هو. كان اسمه «بول ماتاي»، لا بدّ من أنك تتذكّره، سيدي النقيب. عندما كنت تشدّ على يده، رأيت النقيب «ليستراد» يحدّق فيك خلسة بنظرة مليئة بالخجل والضغينة. أترى؟ كان لديه الوقت ليفكّر في نذالة كلّ هذا وفي عدم فائدته. هل كان لدى النقيب «ليستراد» الوقت ليفهم أنّ بعض الغرامات الإضافية من الأرزّ ما كانت لتغير شيئا له؟ هل كان لديه الوقت لذلك، سيدي النقيب؟ قبل أن نحفر قبره بعد ذلك بأقل من ثلاثة أسابيع، تحت الأمطار المتهاطلة. تيبست عضلاتنا بسبب اضطرارنا لاستخدام المجرف كثيرا، لحفر قبور كثيرة: قبر الملازم «توماس»، وقبر الملازم «موري دولا ريبيير»، وقبور كلّ أولئك الرجال الذين كانوا يأملون في العيش، ومع ذلك تركوا لأنفسهم الانقياد وراء سراب العطش لدرجة الولوغ كالكلاب، في الماء الملوّث الذي جعلهم يجرّون أرجلهم عشرين مرّة في اليوم إلى المراحيض، حتّى فقدوا القدرة وانهاروا الواحد تلو الآخر. انهاروا في المستنقع الملوّث بالدم والمخاط، وهم لا يزالون يحلمون بيوم

تحرّرنا، والحمّى تعصف بهم. وبينما نحن ندفعهم إلى اللحود، واحدا واحدا، كنتَ سيدي النقيب، تكرّر عليّ أنه هكذا كان الإنسان العاري، وأنّ ضعفه كان على حالة لا تجعله يستحقّ كرهنا. وكم أعجبت برفقك الذي لم يتبدّل حتى وإن كنت لا أستطيع مشاركتك إيّاه ولا حتى فهمه. لأنّ الحقيقة، يا سيدي النقيب، أنّي حينها لم أعد قادرا على التحمّل، ومن دونك ما كنت لأنجو. لست متأكّدا أن من واجبي شكرك على ذلك لكني أعرف أنه ما كنت لأنجو، فالحنق الذي كان يخنقني دائما كان سينتهي بقتلي. كنت أشعر بحرارته تغزوني أمام الجثث المجرّدة من اللحم والتي كنّا نواريها الثرى تحت المطر. كانت أقمشتهم القرمزيّة تحجب نظري في كلّ جلسة من جلسات التأهيل التي كنا مجبرين فيها على تحمّل الخطابات الواثقة للمفوّض السياسي حول معنى التاريخ وقدوم الإنسان الجديد، كما لو أنّ الإنسان الجديد لم يكن موجودا سلفاً أمامه، في تلك اللحظة بالذات، هزيلا ونتنا بأسنانه المعوجّة المغروزة في اللثة العفنة، كما كان دائماً ومنذ بداية الخليقة، وكما سيبقى للأبد. أنت تعرف ذلك، سيّدي النقيب، كما أعرفه أنا، لكنّ المفوض السياسي كان يتابع إطلاق الهراء ذاته وكنت أرتجف فعليّا من الغيظ أمام هيئته اليسوعيّة، وابتسامته المتفهّمة التي لا ترحم، ونبرته التعليميّة. كان يثيرني لدرجة أني لم أمنع نفسي من القول إنّ الشيوعيّين لم يؤسّسوا إلاّ عولمة القذارة. لم أتمكّن من منع نفسي، سيدي النقيب، وقلت ذلك له براحة لا توصف، ومتمنّيا، ربّما، أن يطلق رصاصة على رقبتي وتنتهي كل هذه المسرحية الهزلية. لكنه اكتفى بالنظر إليّ آسفا، وهو ما زاد من حنقي أضعافا مضاعفة. وفي المساء، عندما وصل الجندي الذي يوزّع الطعام أمامي، ألقى بحصتي من الأرزّ في الوحل الملوّث بالإسهال المختلط بالدم. أعطيتني نصف

حصّتك. كيف يمكن أن أنسى ذلك، سيدي النقيب؟ وقلت لك، لا «أندريه»، لا تفعل هذا، فكّر في نفسك. لكنك قلت، وقد غمزت بعينك، الإنسان لا يعيش فقط من الخبز، وعندها انفجرتُ ضاحكا. أتذكّر ذلك جيدا. إنّ الصوم لا يرعبني، كنت أحلم بالتخلّص من كل أعضائي، أن ألقي بعيدا عنّي أمعائي الملتوية المتشنّجة، وقلبي وكبدي. كنت أحلم بإيقاف مصدر السوائل التي كنت أصرّ على إفرازها رغمًا عني، كي أصبح نظيفا وجافًّا كخشبة ميتة. لكنك طرفت بعينك، وانفجرتُ من الضحك. جلس «بول ماتاي» بالقرب منّا وتشاركنا طعامنا نحن الثلاثة، في حين كان الآخرون يلعقون كرات الأرزّ وينظرون بعيدا وهم يدحرجونها بتمهّل على ألسنتهم إلى أن تذوب. آه، كم كنت أحبّك، سيدي النقيب. ولو لم يعمني الحبّ، تماماً، لكنت ميتاً هناك. لكنتُ ألقيتُ أرزّك في وجهك ولما سمحت لنفسي أن تقتنع بالنقد الذاتي الكامل، والتعبير أمام الناس عن امتناني تجاه «هو شي مينه» من أجل أن يتنازل المفوّض السياسي ويأمر بإعادة صرف حصّتي من الطعام. لأن كلّ ما كنت أحبه فيك، سيدي النقيب، لم يكن سوى قناع لكبرياء طاغ. لم تكن غبيا مثل «ليستراد»، كنت تعلم جيّدا أنّ شرفك لا يتعلّق بالحلاقة اليومية، وأنّ الفكرة العظيمة التي تملكها عن نفسك كانت تتطلب أن تمثل دائما مسرحيّة الأخوّة ونبذ الذات. وهو ماكنت تقوم به دون صعوبة، لأنك، سيدي النقيب، كنت في هذا المعسكر وكأنك فعلا على الأرض التي ولدت عليها. كنت تستلذّ بالدور الذي كنت قادرا على التمسك به والإبداع فيه. يجب الاعتراف بذلك لأنك كنت مجهّزا لذلك طوال حياتك. وإذا كنت حينها تستطيع أن تتحدّث حول موضوع الإنسان العاري فوق جثث «ليستراد»، و«موري دو لا ريبيير»، و«توماس» الذين كان العرض المقيت لعريهم الشخصي

قاتلاً أكثر من داء الأميبا، فذلك لإحساسك الذاتي بالأمان في الدرع المبطّن لكبريائك. ولست أشكّ ثانية واحدة في أنّك تفضّل الموت على أن تضع نفسك في موقف تافه ليس له معنى. والله يعلم أنّي أحببتك لذلك، سيدي النقيب، في حين أنّ الموت، في نهاية الأمر، سهل. إنها مهمّة يؤديها الجميع على أكمل وجه، ولا تستحق أن نتعجب منها. جميعنا يعلم كثيرا عن الموت: الجلاّدون والشهداء، الأبطال والجبناء، العرسان الأبرياء والوصيفات الصغيرات في التاسعة من العمر. آه، لا. إنّي لا أشكّ في أنك كنت تعرف كيف تموت في أبّهة وكرامة. لكن لا شيء يثير اشمئزازي أكثر من الرجال المغترّين بأنفسهم إلى درجة الاهتمام بالموت بكرامة. الرجال مثلك، سيدي النقيب، الذين يخصّصون كل جهودهم كي تصبح حياتهم مشهدا إلى الخاتمة النهائية. أتصور أن عروس «تاغيت» بكت وناحت دون فائدة في الصحراء، وأن المنتدب الشاب نادى، ربما، والدته وتوسل إلى الإله الذي لم يعد يؤمن به كي يساعده. وحتى صديقك «طاهر»، كان سيخيّب ظنك لو أنك حضرت نهايته. كلهم ماتوا بوساخة، كما يموت الناس. إنّ هذا ليس له أي أهمية، ولم نكن في حاجة، في أيّ يوم، إلى رجال يعرفون كيف يموتون. كنا في حاجة إلى رجال يعرفون كيف ينتصرون، ويكونون قادرين، دون تردّد، على التضحية من أجل النصر بكلّ غالٍ وثمين: بقلوبهم وأرواحهم، سيدي النقيب. وأنت الذي لم تخش الموت يوما، ملأك تصوّر النصر رعبا لا يوصف. أخيراً، عندما جاء دورك لتصبح عاريا، للمرّة الأولى في حياتك في رطوبة أقبية الجزائر، لم تتمكن من حماية نفسك من صورتك التي أعادها لك مساجينك العراة المرتعشون. أنت مخطئ، سيدي النقيب. اليوم أعرف ذلك. يستحق جدّا كرهنا، خاصّة عندما يكون بثمن باهظ

لهزيمة إضافية، ولا أريد أن أسامحك إلاّ إذا كان باسم الحب الذي حملته لك وأعماني لزمن طويل وليس باستطاعتي نسيانه، لأنّي أحببتك لدرجة أني سُررت في البداية، عندما أعادوا إليّ حصتي من الأرز وأنك لم تعد مجبرا على حرمان نفسك من الطعام من أجلي. انتهى الأمر بأن أضاف الفيتناميّون لأكلنا قطعا صغيرة من اللحم والفاكهة أكلناها ولعابنا يسيل، حتّى دون أن نحاول فهم ما جعلنا نستحقّ هذا الامتياز. قال «بول ماتاي» إنّهم سيطلقون سراحنا ويريدون أن نسترد صحّتنا قليلا. عندما قال: «سيطلقون سراحنا»، اكتشفت أنه مرّ زمن طويل لم أفكّر في الحرية. وضعت نفسي رويدا رويدا في عالم لا تتجاوز حدوده اللحظة الحاضرة. جلست بجانبك على منصّة الشاحنة التي كانت ستأخذنا إلى أهلنا، وصوب عالم فسيح كان مسبقا قد نسينا. وفي القرى لم يعد أحد يبصق علينا. قبل أن نلبس الزي العسكري الفرنسي، أتى المفوض السياسي وصافحنا جميعا. لم يرفض أحد منا مصافحته. اهتمّ بنا أطباء عسكريّون، وعندما رأيت نظراتهم عرفت حينها فقط مدى تدهور حالتي البدنية.

كانت مجموعتنا مكوّنة من سبعة عشر ناجياً. تقاسمنا مهمّة الكتابة إلى عائلات الأموات وكان علي أن أشهد نهاية النقيب «ليستراد» والملازمين «توما» و«موري دو لا ريبيير». أتذكّر جيدا، سيدي النقيب، أنك سألتني: «هوراس، هل أنت قادر على كتابة رسائل كما ينبغي أن تكون؟» أجبتك بأنّني سأفعل، وفعلت. أتذكر، عرفتُ دائما أنّ في الولاء شيئا أسمى من الحقيقة.

وجدنا صهرك «جان باتيست» في الخمّارة «بهانوي»، التي يبدو أنّه لم يغادرها أبداً في انتظار استقبالك. شربنا نخب اللاشيء. أضرمت الخمرة فيّ النار فتركت نفسي تصل إلى حالة من السكر لا علاج لها

كنهاية العالم. كان حولنا عدد من المومسات، المشحونات بالوطنيّة، يحطن رقابنا بأذرعهن السمينة جدّا. دفن «بول ماتاي» وجهه بين نهدي إحدى الفتيات التي كانت تضحك. كنت أسمع صوتك وأنت تقول، بخجل: «أرجوك، لا تغضبي منّي»، في حين كان «جان باتيست» يؤكّد لك أنه لن يقول شيئا لأخته. وكنت تكرّر، لا، ليست هذه المسألة. توقفت عن التفكير فيك، سيدي النقيب، وسحبت الفتاة تجاهي. سألتها عن اسمها الذي همست به وهي تمرّر لسانها من أذني حتى ما بين شفتيّ. لكني ما كنت أريد تقبيلها، فالنزيف المتواصل للثّتي ترك في فمي طعم معدن يجعلني أشعر بالخجل. لمست مؤخّرتها من تحت فستانها، وشممت عطرها، الذي كانت الرائحة المسكرة للجثث لا تزال تتموّج خلفه، إلى أن سحبتني داخل غرفة توجّب عليّ فيها أن أتعلّم من جديد مذاق اللحم الحي. وضعت رأسي فترة طويلة على بطنها التي كانت ليّنة كالطين. تمكّنت من الإمساك بكعبها الضائع في ضباب الخمر. عندما لامست أصابعي قدمها، سمعتها تكتم ضحكة صغيرة. من جديد سألتها عن اسمها، وكرّرته لي بصوت عال وواضح دوى صداه في ظلام الغرفة. كرّرته ولكن... أتعرف سيدي النقيب؟ لا أتذكّره.

## 28 مارس 1957: اليوم الثاني

ماتيو، 25، 41-43


Twitter: @alqareah

في كلّ صباح ينبغي أن يعاود المرء مجدّدا الإحساس بالخزي من أن يكون على طبعه. ولكن قبل ذلك، عليه قبول الشكر على الرضا الداخليّ. تفكّك حلم الليل وانطوى في الظلام تاركاً، فقط، في قلب النقيب «أندريه دوغورس» هاجسا غير واضح لعزاء ينبغي القيام به. لا ماضي، لا عائلة، لا اسم. متمدّد ببساطة، على سريره، وعيناه مفتوحتان تتطلّعان إلى الفجر الذي لم يعرفه. لا يوجد شيء حتّى اللحظة في هذا العالم، إلا الصورة الهادئة جدّا «لطاهر» وهو جالس، يداه ورجلاه مربوطة، على فرشته يبتسم لشيء لا يُرى. كان النقيب «دوغورس» لا يزال يريد التنعّم بعذوبة النسيان، إلاّ أنه لا يستطيع منع نفسه من التساؤل عن هذا الرجل، وفجأة تذكّره بعنف. إنّ الذاكرة لا تعرف الشفقة.

*(إنّني سجّان. أنا سجّانه)*

كان جالسا على طرف سريره يتفحّص باشمئزاز ساقيه، والقشعريرة التي سرت في جسده، والشعر المنتفش على جلد فخذيه الشاحب. ارتدى ملابسه وكلّه إحساس بالتحرّر في مواجهة سرّ مثير للقرف. ابتلع قدحا كبيرا من القهوة الباردة أصابته بالغثيان. وقف أمام النافذة المفتوحة. دخّن أكثر من سيجارة، وهو يستنشق عميقا الهواء الرطب البارد. أشرق الأفق بنور أصفر، ومن القصبة ارتفع النداء لصلاة الفجر. ما إن سكت المؤّذن حتّى ظهرت الشمس فوق المباني. خرج النقيب «دوغورس» يسير في الممرّات الخالية. سمع تمتمات وشكاوى خلف أبواب الزنزانات. مرّر اثنان من الحركيّين

بنشاط، المسحة في إحدى قاعات الاستجواب. كان رئيس الرقباء، «مورو»، جالساً على طرف الطاولة مستغرقا في تأمّل عابس لزينة خزفيّة في زاوية السقف؛ أعمدة متقاطعة من الأزهار عصيّة على الفهم، فهي صفراء وخضراء وزرقاء جعلها النور القويّ للمصباح عديمة الرونق بشكل غريب. أحد الحركيّين أسقط مكنسته كي يأخذ وضعيّة الاستعداد، أمّا الآخر فقبض عليها أمامه وهو يحاول ما في وسعه أخذَ وضعيّة نظامية بأي حال. أشار إليهما النقيب «دوغورس» باستكمال عملهما واتّجه يصافح «مورو» الذي وقف لإلقاء التحية.

- كيف حالك، سيدي النقيب؟ هل تريد بعض القهوة؟ إنها طازجة.

وافق النقيب وهو ينظر إلى زبد الماء الداكن على البلاط قائلا:

- بكلّ سرور، «مورو». القهوة التي شربتها قبل قليل كانت فعلا سيّئة.

تبع رئيس الرقباء إلى قاعة مجهّزة بمطبخ مؤقّت. شربا قهوتهما في صمت، وضع النقيب فنجانه وقد بان الامتعاض على وجهه.

- هذه أيضا تثير الاشمئزاز. ولكنّها على الأقلّ ساخنة.

ارتسمت بسمة على وجه «مورو».

- هل تأذن لي بالتحدّث معك في موضوع، سيدي النقيب، بكل صراحة؟

- هذا هو السؤال الأكثر غباء الذي سمعته، يا «مورو». قال النقيب «دوغورس» ساخرا. كيف تريد مني أن أعرف إذا كان بإمكاني السماح لك وأنا أجهل موضوع السؤال؟ تكلّم دائما. وأنا الذي أقول لك ما إذا كان من الأفضل لو خرست.

أخرج «مورو» علبة جيتان، مفروكة، من جيبه. سحب سيجارتين منها وأخذ يملسهما طويلا قبل أن يقدّم إحداهما للنقيب. عاد يبحث

في جيبه عن علبة عيدان الثقاب.

- هيّا، يا صديقي! ألقى النقيب بالقدّاحة إليه، وقد نفد صبره.

أخذ «مورو» مزيدا من الوقت وهو يسحب نفسا طويلا من سيجارته.

- الأمر يتعلّق «بفيبفاي».

- «فيبفاي»؟

- الرقيب «فيبفاي»، سيدي النقيب.

- وماذا؟ ألم ترسله بعد إلى «تمنراست»؟ سأل النقيب «دوغورس»، وكم يكره سماع صوته المليء بالمزاح المنطلق كذبا.

امتنع «مورو» عن إظهار ابتسامته. نظر إليه باهتمام وهو يميل على سيجارته.

*(لم أعد نافعا لشيء. لا لشيء أبداً)*

- هذا هو الأمر، سيدي النقيب. أرجو أن تعيد التفكير في قرارك. أعتقد أنه ليس من العدل يا سيدي... «فيبفاي» رجل جيّد.

- رجل جيّد. كرّرها النقيب «دوغورس». رجل جيّد.

اجتهد في إثارة موضوع المسدّس المغروس في فرج الفتاة، ووجه الرقيب المتهلّل فرحا، وكرّر مرة أخرى، بصوت غير مسموع تقريبا: «رجل جيّد» آملا أن ينقذه الغضب ويأخذه إلى حالة أخرى. لم يتمكّن حتّى من الشعور بأنّ الأمر يقلقه.

*(ينبغي لي أن أكون في مكان آخر، ببساطة مكان آخر)*

أغلق عينيه للحظة وإذا بالكلمات تأتيه.

- لن أناقشك في تصوّرك الشيّق جدّا لمعنى «رجل جيّد»، يا «مورو»، لأنّ ذلك لا يهمّني ولأنّ ذلك ليس موضوعنا. أتفهم، ليس موضوعنا البتّة. دعني أخبرك بماذا يتعلّق الأمر هنا، وعندما

تفهمه جيّدا، أنت نفسك، ربما تحاول مساعدتي بفعالية في ألاّ ينساه رجالنا، بدل إرهاقي بتقرير عن أفكارك الصباحية. إنّ الأمر يتعلّق بمعنى مهمّتنا، يا «مورو». يتعلّق بما يبرّرها، وهذا أمر بسيط جداً، فعلا بسيط جداً. نشاطنا ليس له معنى إلا لأنه فعّال، ليس مقبول من وجهة نظر أخلاقية إلا لأنّه فعّال ويسمح لنا بإنقاذ الأرواح... أرواح الأبرياء. إنّ الجدوى هي هدفنا الوحيد، وهي أيضا التي تعيّن... تعيّن حدودنا. إذا فقدنا جدوى البصيرة...

– لكن، سيدي النقيب، نحن لا...

– اخرس عندما أتكلم، يا رئيس الرقباء. اخرس! قال النقيب «دوغورس» بجفاء وهو يعي تماما سلطته التي وجدها. اكتفِ بالسماع وإغلاق فمك إلى أن أعطيك الكلمة. إذن، إذا فقدنا جدوى البصيرة، إذا سمحنا لمن هم على شاكلة «فيبفاي» أن يطلقوا لأنفسهم العنان ويعيثوا في ملذّاتهم الداعرة في... أثناء سير... الإجراءات، فإننا لم نعد جنودا في مهمّة، نصبح... لا أعرف ما نكون عليه. بل ولا أريد أن أتخيّل ذلك. هل فهمت؟

– نعم، سيدي النقيب. فهمتك. لقد ارتكب «فيبفاي» خطأً، بل خطأ جسيما، أتّفق معك. وأنا أخطأت بتركه يفعل ذلك.

– لم أطلب منك أن تقول ذلك، يا «مورو». لا تحاول جذب انتباهي إلى هذه الزاوية من المشكلة.

أخذ النقيب «دوغورس» كوبا آخر من القهوة، دون أن يرفع عينيه عن «مورو». وجد للتوّ دوافع شريفة وعقلانية لسلوك فقدان التحكّم في النفس، الذي أصابه الليلة السابقة ولم يكن لديه أي دافع حينها سوى فقدان أعصابه الحادة. لكن المثير أكثر للحيرة، أنه لم يضطرّ بنفسه

إلى اختلاق قائمة حججه التي تعذر سلوكه وتبرره. كانت مهيأة، موجودة مسبقا، وسمعها مائة مرة من أفواه رؤسائه. لم يستطع أن يأخذها على عاتقه بكل هذا اليسر والاقتناع وإعادة إنتاجها، حتّى في تردّداته المسيطر عليها، وحيائه، وكناياته، إلاّ لأنّه ليس مؤلّفها. كان يكفيه أن يدع التيّار القوي يتخلّله ويجري فيه كالماء الوسخ في المجاري. تيّار من الكلام لم تكن صياغته تتطلب منه المساعدة ولا الرضا. مع ذلك، فكلما كان يستمع، هو نفسه، إلى هذ الخطاب، وخاصة إلى الطريقة الرجولية التي كان يتبعها العقيد، كان يشعر بنفور شديد وقشعريرة اشمئزاز مع كل كلمة ينطقها. ليس لأنه مليء بالأكاذيب الوقحة، ولكن لأن في قلب هذه الأكاذيب الوقحة يوجد التعبير عن الحقيقة الأكثر صفاء، والتي لا يمكن رفضها. حقيقة لم يكن له فيها أي تأثير، وكانت تحتجزهم جميعا، في قبضتها الجامدة، هو و«مورو»، و«فيبفاي»، والعقيد.

- إنه خطأ، أعرف سيدي النقيب. كرّر «مورو». لكن الجميع يخطئ. نحن بشر.

لم يعلّق النقيب «دوغورس» على كلامه.

*(نحن بشر. إنه الخطأ وليس العذر. الخطأ)*

- ليس ذلك سهلا، هنا، قال «مورو» وهو ما يزال مدافعا. هنا دبر العالم.

- حسب معرفتي، قال النقيب «دوغورس»، ولأستخدام استعارتك الأنيقة، فإن للعالم أكثر من دبر.

ابتسم «مورو» بوهن.

- حسنا، وماذا بعد، سيدي النقيب؟ سأله. لقد لحقه منك ما يستحقّ، على وجهه. ألا يكفي هذا؟ أرجوك.

يعلم النقيب «دوغورس» أنه لم يعد لديه ما يخسره عند الظهور بمظهر الكريم. سخر من «فيبفاي». إذا تخلص من «فيبفاي» فسوف يرسلون له «فيبفاي» آخر. فقدَ الناس ما يميزهم سواء في الخير أو الشر، أصبحوا يتشابهون جميعا.

- حسنا، «مورو». قل «لفيبفاي» إن الأمر انتهى. وقل له أيضا أن يتجنّب لقائي في الممرّات طيلة الأيام المقبلة إلى أن أنسى هذا الموضوع تماما.

وضع رئيس الرقباء يده شاكرا على ذراعه قائلا:

- شكرا سيدي النقيب. شكرا.

لوهلة سأل النقيب «دوغورس» نفسه لماذا يُصرّ «مورو» كل هذا الإصرار على بقاء «فيبفاي» قريبا منه. باسم أيّ ماض مشترك جمعهما، أو محبة عمياء، أو نزعة حماية أبويّة؟ يستطيع السعي لمعرفة ذلك، ويستطيع فتح الموضوع بصدق وصدر رحب مع «مورو»، وكسر القشرة اللزجة التي تخنقه عندما ينطق كلماته الخاصة. لكنه يشعر مجدّدا أنه محكوم بالرغبة في أن يكون في مكان آخر. يعرف الآن، أنّه كان ينبغي له أن يذهب إليه منذ استيقظ من نومه.

- لنقل إني فعلت هذا من أجلك «مورو».

- شكرا، سيدي النقيب.

خرج النقيب «دوغورس» من الغرفة قائلا: «سأذهب لرؤية الحاج ناصر». تقدّم خطوات ثمّ أقبل راجعاً صوب رئيس الرقباء.

- هل تحتاجني هذا الصباح؟

- لدي معاملات أنهيها، سيدي النقيب. سنقبض على أحد الأشخاص. ولكن أستطيع القيام بذلك لوحدي.

* * *

كان جامدا على فراشه، كما هو في أحلام النقيب. لكنه هادئ جدا وكأنه جالس في ظل منعش لإحدى النخلات في «تيميمون» أو «تاغيت»، يشاهد من ورائها الكثبان المتموجة تحت ملامسة ريح باردة، وهو شارد التفكير في أشياء لطيفة وعجيبة لا تنتمي إلاّ إليه.

- صباح الخير. قال النقيب «دوغورس» وقد منع نفسه في آخر لحظة من أن يضيف: «هل نمت جيّدا؟»

ردّ «طاهر» التحية بإشارة من رأسه.

- لا يوجد لدي أخبار جديدة بخصوصك. ستصلنا بالتأكيد قبل الظهر.

- لا يهمّ. أجاب «طاهر».

ظل النقيب واقفا للحظة قبل أن يجلس على الأرض في مواجهة سجينه. شعر بأنّ عليه أن يفسّر سبب حضوره. بحث عن حجة مّا، لكنّه لم يجد شيئا يقوله غير الحقيقة. أشعرته بساطة الحقيقة براحة كبيرة.

- إذا كنت تريد... كان لدي الرغبة في الحديث معك. إذا كنت تسمح. لا أريد إزعاجك.

- نستطيع الكلام، أيها النقيب. قال «طاهر». نستطيع الكلام.

رجع النقيب «دوغورس» إلى الخلف مستندا على الجدار وعيناه شبه مغلقتين. «لست في سلام مع نفسي»، قال بصوت لطيف، ثم أضاف بصوت لا يكاد يسمع، وكأنه يحدّث نفسه: «آه، لا، أنا لست في سلام...»

كان صدره يرزح تحت شعور مؤلم. كان بإمكانه أن يقول هذه

الكلمات إلى «جان ماري» بدلا من الإمعان في أن يكتب لها الجمل الجاهزة نفسها، والوحيدة فيما يبدو التي أصبح عقله قادرا على إنتاجها. ولقاء عمل شاقّ جدّا كهذا، عندما يحاول التوجّه إلى زوجته وأطفاله، فإنّ «جان ماري»، بالطبع، لن تحكم عليه. بل على العكس كانت ستفضّل ألف مرّة أن تشاركه عذاباته وشكوكه بدلا من استنفاد صبر حبّه خلف الأسوار التي أقامها يوما بعد يوم حول قلبه. قلبه المليء بالصمت، أو أنّه كان يستطيع التماس متلقّ يجده في العقيد ليقول له هذه الكلمات ذاتها دون مراوغة، وكما ينبغي لرجل حرّ تضفي عليه أفعاله الحقّ المطلق في التعبير كما يريد. وما الذي كان سيفعله له هذا الغبي الذي لا يفهم غير أن يشتمه، أو يهدّده بوضعه في التوقيف؟ لم يكن في حاجة إلى احترام العقيد، ولكن كان عليه، بشكل خاصّ، أن يقول هذه الكلمات لنفسه. وأن يوجّهها في وحدته ويقيس وزنها المخيف. كان ينبغي له أن يفكّر قبل أن يضع نفسه في موقف المذنب من خلال هذا الخرق المريع بنطقها هنا، في مواجهة رجل مشدود الوثاق، لاحقه لأسابيع، ويظلّ عدوّه. رجل أعطى الأوامر بقتل المدنيّين الأبرياء، ووضع السلاح في يد قاتليهم لأكثر من مرّة. رجل بذر الموت والرعب، ويبدو في كامل هدوئه، وهشّ كما لو أنّ كل هذا الدم المراق لم يكن أكثر أهميّة من مطر عاصف طارت به الريح. ولكلّ هذا، يعلم النقيب «دوغورس» جيّدا أن هذه الكلمات لا يمكن أن تقال إلاّ له.

– أفهم. قال «طاهر» بصوت خافت.

عذوبة صوته وضعت النقيب «دوغورس» فجأة، وبشناعة، في موقف غير مريح.

– لا، قال بصوت قوي. لست في سلام. عندما قلت لك، بالأمس، إنّ كل شيء انتهي، لم أكن أريد ترك انطباع لديك، أو أي شيء من

هذا القبيل. لم أكن أريد الظهور في مظهر المنتصر، أبداً. قلت لك هذا لأنه صحيح. انتهى الأمر. إنّها مسألة وقت. لو تسنّى لك الدخول إلى مكتبي ستدرك مباشرة ذلك. سترى المخطّط الهيكلي، منظّمتكم تمّ تدميرها بالكامل. القضاء عليها محتوم. بصدق أكلّمك، وبالتالي فقد انتهى الأمر. لكن هذا الانتصار، هذا الانتصار هناك...

رفع النقيب كتفيه

-... أفترض أنه يوجد انتصارات أقل ألماً، انتصارت يمكن أن نكون فخورين بها. لنتّفق أنّ هذه ليست واحدة منها، وكنت أتمنّى شخصيا، لو لم أشارك فيها.

أشعل سيجارتين، وقدّم إحداهما إلى «طاهر».

- لماذا؟ سأل «طاهر» باهتمام صادق. أنا لا أؤمن بتاتاً بانتصارك، لكن إذا أنت متأكد فلماذا؟

- تعلم لماذا، قال النقيب «دوغورس».

- لا، لا أعلم. أصرّ «طاهر». أخبرني.

نفث النقيب «دوغورس» الدخان من يده المفتوحة ولجأ إلى الصمت لحظة.

- أتعلم، عاد يتحدّث، كنت في المقاومة، ومنع نفسه من القول ببلاهة: «وأنا أيضا». وقبض علي عام 1944. وتمّ اعتقالي واستجوابي.

لقد اعترف بهذا عشرات المرّات بنبرة الواثق، إلى سجناء جزائريّين، كما فعل بالأمس مع «عبدالكريم» مترقّبا أي لحظة انكسار. كان يصطاد كل مرّة اللحظة المناسبة لإقامة علاقة إنسانية مزيفة مع

محدّثه، أو جعله يعتقد أنّ ما كابده قبل قليل كان تافها لا قيمة له. أو على العكس من ذلك، لكي يجعله يلمح في نفسه ضعفا زائفا يعطيه ثقة في نفسه دون أن ينتبه إلى أنّه سيقضى عليه بهذه الثقة. تعلّم النقيب «دوغورس» صياغة جملته وذلك باتّخاذ الهيئة التعبيرية الأكثر ملاءمة مع الهدف الذي حدده لنفسه. طلى وجهه بقناع الشفقة والخمول أو ازدراء متعال. وكل مرّة كان يركّز على هذا الهدف منذ البداية حتّى أنّه كان ينسى بأنّ كلامه يتعلّق بأحداث وقعت فعلا. لكن اليوم، لا يوجد هدف، وللمرّة الأولى كانت الكلمات تعيده إلى أقبية الجستابو في مدينة بوزنسون. هناك، حيث يوجد رجلان، اختفت ملامح وجهيهما من ذاكرته وبقيت رائحة التبغ والعطر، يدوران حوله وهما يثنيان أكمامهما بعناية فائقة في ذلك الحرّ من شهر يونيه. فهم معنى ما يحاولان إظهاره، وحاول أن يتنفّس بهدوء دون أن يتابع نظراتهما، لكنه لم يكن قادرا على التحكّم في ضربات قلبه. قبل عدّة أسابيع من ذلك، عندما وافق على القيام بمهمّته الأولى في تعليق منشورات سرّية، وهي مهمّة تافهة، قال له «شارل ليزيو»، أستاذ الرياضيات في السنة التحضيريّة: «إذا أصبت بنكبة القبض عليك، فلا تحاول أن تلعب دور البطولة، «أندريه». حاول ألاّ تقول شيئا لمدّة أربع وعشرين ساعة. أربع وعشرون ساعة ستكون كافية». كان مقيّدا إلى كرسي، والرجلان ما يزالان يدوران حوله باطمئنان من عاش على النهب وبهدوئه. لم يسأل «أندريه دوغورس» نفسه سوى شيء واحد: هل سيكون قادرا على التحمّل أربعا وعشرين ساعة؟ هذا السؤال سيطر عليه تماما، ومنعه من التفكير في الحبّ الواضح لوالديه، وفي أحلامه بالقبول في دار المعلّمين العليا، وفي النزهات الطويلة في ليالي الربيع، بعد الدروس، على ضفاف نهر الدوب بصحبة «ليزيو». منعه من التفكير في العيون

الضاحكة لطالبة ثانويّة مجهولة لن يصادفها مرّة أخرى أبداً. وفي الدفء اللطيف للقدّاسات المسائية أيام طفولته... كل هذه الأشياء التي تنتظره ذكرياتها لتلج روحه كي تهيجها وتجعلها تتلوّى إلى أن تنكسر تحت وطأة الحزن. وعندما وضع أحد الرجلين أخيرا، يده عليه وفلق الخاتم الذي يحمله في بنصره فجّ شفتيه، ارتاح. لأنه يعلم أن الإجابة ستأتي لاحقا. نعم، كانت بالفعل راحة. يتذكّرها تماما، لأن الرجاء والخوف طردهما، فجأة وبعنف، الانبثاق العالي للألم البدني الذي صدع كذلك الذاكرة، والتفكير، والوقت. لكن الإجابة لن تأتي. ولم تأت أبداً. وكل اللحظات ألغيت أو تمدّدت. وكل ثانية تتلو ثانية أخرى ثمّ يمتصّها العدم، أو تتجمّد كي تشيد الخلود. ولم تعد أربع وعشرون ساعة تعني له شيئا البتة. كان النقيب «أندريه دوغورس» يعيد مشاهدة نفسه عاريا. ممدّدا على الأرض والركبتان مثنيتان على الصدر، وهو لا يعرف أي جزء من جسده عليه حمايته. والرجلان ينحنيان عليه ببطء غير طبيعي. شمّ رائحتهما، الهواء الحار لتنفّسهما. كان يوجد مصباح، وسلك مكشوف، وخزف رمادي لمغطس استحمام، وجلدة ماء بالصابون له مذاق الدم. وفجأة، أصبح وحيدا. ويتنفّس بنهم. جذبت يد مّا شعر رأسه، وسحبه تحته وهو يسمع صوتا موحشا يقول بخيبة: «أنت بحقّ خنزير، أيّها الولد، خنزير نتن. أين تربّيت؟ جوانبه المهشّمة جعلته يتأوّه كمولود، لكنّه لم يعد يشعر بالألم. أصبح الألم الجوهر الخاصّ لكينونته، وأخذ يؤجّل دقيقة خلف دقيقة لحظة الاعتراف، اللحظة اللذيذة التي يستطيع فيها التلفّظ باسم أستاذ الرياضيات، الاسم الوحيد الذي يعرفه. وأجّله إلى أن أغلق عليه في الزنزانة دون أن يقول شيئا. ولم يخرج من زنزانته إلا عندما أرسل إلى «بوشنوالد». في معسكر الاعتقال علم أنّه مضى عشرة أيام

منذ اعتقاله، لكنه لم يعرف مطلقاً كم من الوقت استغرق استجوابه.

على رصيف محطة القطار، أدار أريج الصيف واتّساع السماء رأسه. وعندما انغلقت أبواب عربات القطار عليه، تدفّقت فجأة كل ذكريات وجوده الفِرّ التي أزاحتها، بعيدا عنه، هيمنة الألم حتّى الآن. تفكّكت وتجمّعت في إحساس واحد فريد، ذي بساطة مطلقة. الإحساس الجارح بلطف الحياة. عمره تسعة عشر عاما، والنحيب يخنق حلقه، ولو أنّ أحدا وعده، في هذه اللحظة، بأنه سيعود إلى منزله ويرى والدته من جديد، فسيقول له ما يستحقّ سماعه. كان على معذّبيه من الجستابو أن يعرفوا هذا، كان عليهم أن يعطوه الراحة التي كانت ستفتح لهم روحه. لكنهم كانوا يستهزئون ممّا كان يستطيع الاعتراف به أو الرفض. لم يريدوا سوى أن يجعلوه يعاني ويعاقبوه. لم يكونوا في حاجة إلى معلومات لأنّه تمّ القبض على «شارل ليزيو» قبل القبض عليه بساعة واحدة، وذلك عندما كان يهمّ باللحاق به. ولم يكن هناك، مطلقاً، أيّ سرّ يستحقّ الحماية.

طوال كل هذه السنين، لم يفكّر فعلا في كل هذا؛ فالحروب التي خاضها لم تترك له مجالا لذلك، والأشهر العشرة التي أمضاها في «بوشنوالد» تتمدّد خلفه وكأنها فلاة واسعة حزينة تشطر حياته إلى نصفين، وتفرّق للأبد بينه وبين شبابه الضائع. لكنه لم ينس. في شهر يونيه 1944 جلس على كرسيّه صامتا كي يثبت أثرا لمعرفة طويلة الأمد سمحت له أن يشرح لمرؤوسيه: «أيها السادة، إن العذاب والألم ليسا المفتاحين الوحيدين لسبر أغوار الروح الإنسانية. بل هما، أحياناً، بلا جدوى. لا تنسوا أنّ هناك مفاتيح أخرى: الحنين، الكبرياء، الحزن، العار، الحبّ. انتبهوا جيّدا للشخص الماثل أمامكم. لا تتشبّثوا بآرائكم دون فائدة. ابحثوا عن المفتاح. يوجد دائما مفتاح». أصبح لديه الآن

يقين عبثي لا يطاق بأنه لم يسجن في سن التاسعة عشرة إلاّ لكي يتعلّم كيف ينهي مهمّة تمّ تكليفه بها في الجزائر بعد ذلك بثلاثة عشر عاما. وهذا لا يستطيع البوح به «لطاهر».

- أنت نفسك تمّ استجوابك عام 1944، كرّر «طاهر». نعم. الآن فهمت.

اغتاظ النقيب «دوغورس» من الانتباه والصدق الواضحين في وجه «طاهر».

- هذه وسائلك! قال بجفاء. إنها وسائلك التي تجبرنا...

أطفأ سيجارته على الأرض وقذف عقبها بعيدا في إحدى زوايا الزنزانة.

- لم تترك لنا خيارا آخر! قال، ثمّ وللمرة الثانية، منع نفسه في آخر لحظة من إضافة: «ماذا كنت تريد أن نفعل؟»

- هذا غريب. تمتم «طاهر» بشرود.

- ما هو الغريب؟

- نعم، هذا غريب، تابع «طاهر». أنا، لمعلوماتك، كنت متأكّدا أننا نحن الذين لم يكن بإمكاننا اختيار الوسائل.

نظر إليه النقيب «دوغورس» طويلا.

*(يمكن للمنطق أن يُقلب مثل القفاز. الكذب. الحقيقة)*

استعاد هدوءه. لم يعد لديه الرغبة في الكلام عن الحرب. نُزع حذاء «طاهر» وإذا هو يرتدي جوارب مرتقة. ارتعش النقيب «دوغورس»، بشكل غريب، من ذلك.

- لم أسألك: هل تريد شايا أو شيئا من القهوه؟ هل تريد الاستحمام؟ أحذّرك بأن القهوة مثيرة للاشمئزاز...

دخل أحد الجنود إلى الزنزانة: «سيدي النقيب؟ يجب أن تأتي. العقيد على الهاتف». قام النقيب «دوغورس».

- سأعود. قال «لطاهر».

التفت إلى الجندي:

- ابق مع...

لم يعرف كيف يسمّي «طاهرا». لا يريد أن يقول «السجين»، ولا أن يستعمل اسمه المعروف به في الحرب أو أن يطلق عليه «السيد».

- ما هي رتبتك في جيش التحرير الوطني؟ سأل «طاهر».

- أنا عقيد جيش التحرير الوطني.

- ستظل مع العقيد «الحاج ناصر»، واحرص على أن يحصل على ما يحتاجه. ثمّ أعد إليه حذاءه، إن كان يريد ذلك.

* * *

- هل تعلم أنّك وضعتنا في موقف قذر، «دوغورس»؟ هل تعي ذلك؟ أتمنّى أن تكون أمضيت ليلة لعينة، لعينة جدّا، مثلي. ماذا سنفعل بهذا «الحاج ناصر»؟ أقسم لك أني كنت أتمنى لو أنه قاوم أثناء القبض عليه لكنت جعلته عبرة، ابن العاهرة. صدقني لكنت فعلت...

- لا أفهم سيدي العقيد: كنت بالأمس راضيا جدّا.

- نعم، هذه هي الحياة، يا عزيزي الصغير. نكون راضين ثمّ لا نعود كذلك... هكذا هو الأمر... نفكّر... نرى الأشياء بصورة مغايرة... جوانب لم نفكّر فيها... تعقيدات... يا إلهي، هذا ليس صعبا على الفهم. ألا تفكّر أبداً، أنت؟

*(الغبي عرّض نفسه للتوبيخ)*

- يحدث لي أحياناً، سيدي العقيد.
- وكيف هو «الحاج ناصر»؟ هل هو خائر القوى؟
- رأيته بالأمس، سيدي العقيد. لا، ليس خائر القوى. بالتأكيد هو ليس كذلك.
- والمسألة الأمنيّة؟ لا يوجد مخاطرة بأن يهرب؟ أو أن يحاول ذلك؟
- لا، سيدي العقيد.
- أكيد؟ هل أنت متأكد تماماً؟
- نعم، سيدي العقيد. بالتأكيد.
- حسناً... حسناً... ممتاز...
- متى تريد أن أسلّمه إلى العدالة، سيدي العقيد؟ بمجرّد أن يحدث ذلك، لا يصبح مشكلتنا.
- لم أطلب رأيك «دوغورس». سأتصّل خلال اليوم لأعطيك التعليمات.

* * *

بريد الصباح: «جان ماري»، والداه، «مارسيل». بمجرّد أن لمس النقيب «دوغورس» الظروف، ظهرت صورة «كلودي» من جديد. لكنها واضحة جدا هذه المرّة: كانت ممدّدة في سرير عليه ملاءات بيضاء ثقيلة، وطرفا أنفها مضمومان على وجهها الصغير الغاضب، وعيناها محاطتان ببقع زرقاء، وحول أصابعها المتصلّبة مسبحة ملفوفة. كان جدّاها يقفان حولها، وأخوالها، وخالاتها، ووالدتها الممسكة بيد «جاك». وحتّى «مارسيل»، في هيئة جيّدة وقد فرّ من لعنته الإفريقية. لا نعرف كيف! لا نعرف كيف. لا ينقص إلاّ هو، وغيابه طبيعي جدّا

حتّى أنه لا أحد يلاحظه. لا يزال، ربّما، في الجزائر، ربّما في غرفة مجاورة حيث يحبسه جرمه للأبد. أحلام اليقظة المرضيّة التي تصيبه أصبحت تلقائية. لم تعد تقلقه حقيقة، رغم أنه لا يستطيع منع نفسه من الانجرار خلفها.

*(إلهي، إلهي، أي رأفة)*

يفتح الرسائل ويستعرضها سريعا الواحدة تلو الأخرى.

«أندريه، طفلي، حبيبي. كلودي وجاك كانا اليوم بالذات متعبين. إنهما فعلا، في حاجة...»

«ابني العزيز، صحة والدك التي حتّى الآن...»

«... أمّا هذه المرّة فإنه الإسهال المؤلم الذي لم يجعلني أرتاح لحظة، فأنهكني بشكل فظيع...»

ما الداعي لكل هذه الأخبار؟ في ماذا ما تزال تهمّه؟ ما الذي يستطيع فعله لها؟ يتمنّى ألا يستقبل أي رسالة مجدّدا، وألا يكتب. يتمنّى لو رجع إلى ربيع 1955، إلى فندق «بيانا». كان لا يزال يسبح في ملابسه، وكانت معدته تجعله يعاني بمجرّد أكل طعام غني قليلا... لكن السماء كانت صافية. لوت «كلودي» كاحلها وهي تجري في الرمل. دلكت قدمها بلطف فيما كانت تنظر إليه بين الفينة والفينة وتقطب وجهها قليلا بسبب الألم. كان يردّ عليها بصيحات تعجّب حنونة تجعلها تنفجر من الضحك.

«... ونبلغك ودّنا...»

«... أندريه، نحبّك كثيراً...»

في «بيانا»، لم يكن قلبه خاليا. لم يكن يشعر بالعار من نفسه.

«... ودود في العيون، دود حيّ، يسيل كالدموع.»

* * *

كان صبيّ عربيّ في الثانية عشرة من عمره يجلس على مقعد في الممرّ، وأمامه أحد الجنود يقوم بألعاب سحريّة. قطعة نقدية من فئة الخمسة فرنكات تختفي بين أصابعه كي تنبعث من فمه، أو خلف أذني الطفل الذي كان يفتح عينيه تعجّبا.

– من هو هذا الطفل؟ سأل النقيب «دوغورس».

– ابن أحد المتّهمين، سيدي النقيب.

خرج «مورو» من قاعة الاستجواب وأخذ النقيب جانبا.

– الشخص الذي قبضت عليه هذا الصباح تكلّم، سيدي النقيب. أشياء مهمّة جدّا، أعتقد.

– تكلّم؟ بهذه السرعة؟

– نعم، سيدي النقيب. لم يكن الأمر صعبا، كما تعلم. إنه قوي، من النوع المرتاب. أخرجت أمامه مولّد الكهرباء، والأسلاك، كل العدّة. طلبت من أحد الرجال توصيل الكهرباء كي نرى إذا ما كان كل شيء يسير سيرا حسنا. أحضرنا دلو ماء وإسفنجات. بيّنت للرجل ظنّي أن الضغط على شخص قويّ، كما هو عليه المتّهم، لن يؤدّي إلى شيء. كنت متأكّدا أنه شجاع ولن يخبرنا بشيء. سترى البيان على كلّ حال. قلت له إنّه بحكم أننا لا نحبّ إضاعة وقتنا، فقد قبضت على أصغر أبنائه. وإنّنا سنرى معاً كيف سيتحمّل الطفل مولّد الكهرباء. أدخلناه القاعة. وما أن قلت للطفل: «سننزع عنك قميصك وبنطالك، يا صغيري، كما نفعل على الشاطئ، كي نري والدك شيئا». قال الرجل مباشرة. إنه سيتكلم. وهكذا، تمدّد دون أي مشكلة. كنا على وشك إجباره

على التوقّف عن الكلام! كان الأمر ممتعا، سيدي النقيب.

- هذا هو يا «مورو». قال النقيب. أصبحت خبيرا في علم النفس. قل لي، وماذا بعد؟

- في النهاية، سيدي النقيب، ألقى لنا بشخص. رجل يعمل في الميناء، نقابي، أمين مخزن فيما أظن، أو محاسب، شخص شيوعي، فرنسي، سيدي النقيب.

- كلّهم فرنسيّون، يا «مورو».

- آه، سيدي النقيب، أنت تعرف جيّدا ما أريد قوله!

- نعم، «مورو». أعرف جيدا. حسناً، ستحضره لي. عندما يكون هنا نادني.

- حالا، سيدي النقيب.

في الممرّ، وقف الطفل الصغير وانطلق يجري. كان والده يخرج من قاعة الاستجواب بين حركيّين اثنين. عمره خمس وأربعون سنة، طويل وشديد، شعره المجعّد كله تقريبا داكن. انثنى كي يأخذ الطفل بين ذراعيه. سحبه إلى صدره بكل قوّة وهو يرسل إلى النقيب «دوغورس» نظرة طويلة مليئة بالعرفان واليأس. وعيناه الرطبتان دامعتان. كأنهما عينا شيخ مسنّ.

*(لا يوجد هنا أي شرّ. ينبغي للأشياء أن تحدث هكذا، دائما)*

- سأرافقك إلى السيارة، يا «مورو». لم تسنح لي فرصة للخروج اليوم. سأستنشق قليلا من الهواء.

كانت الشمس ساطعة والجوّ حارا. ولون السماء ما يزال ملتبسا وقبيحا، أزرق شاحبا ولبنيّا ذكّر النقيب «دوغورس» بالصور البريئة التي كانت تكتب عليها والدته تهانيها في عيد ميلاده، أو السنة

الجديدة. كان عليها صورة الطفل يسوع، ممتقع الوجه منتفخا، دون حركة، خوفا من اختلال توازنه على ركبتي السيدة العذراء. أو شهيد القدّيسين الغامضين، المجلودين، المقطّعين أو المهروسين. كان فمه ينفتح على صرخة تشبه أنين الانتشاء. وفي الخلفيّة، ملائكة يعزفون البوق في السماء المصقولة ذاتها. لم يقل النقيب «دوغورس» لوالدته أبداً، كم كانت هذه الأشكال الساذجة تزعجه. وإنّها لا تتلاءم فعلا مع طبيعة إيمانه. لم يكن بمقدوره أن يمنع نفسه من استخراج شيء زنخ، وفاسد وجده في تغيّر سماء الجزائر الماكرة. في الجنوب، كانت سحب هائلة صفراء وبنّية تتراكم في الأفق. أصبح جلد النقيب «دوغورس» نديًّا فدخل يغسل يديه ويغمر وجهه بالماء المنعش. كانت لديه الرغبة في العودة لرؤية «طاهر»، والجلوس في مواجهته في ظلام الزنزانة المطمّئن. مرّ بمكتبه حيث وُضعت صحف الصباح. كانت صور «طاهر» في الصفحة الأولى تحت عناوين أجمعت على الانتصار. لم يكن لدى النقيب «دوغورس» الشجاعة لقراءة المقالات، كل هذا النثر اللزج والبارد. قلّب بريده من جديد دون تركيز ورفع عينيه إلى أعلى المخطّط الهيكلي. كان يجب أن يضع علامة حمراء على صورة «طاهر»، لكنه لا يرغب في ذلك. تشاؤم غبي. الأكيد أنه سوف يقلّد وساما أو يحصل على ترقية بسبب إلقاء القبض عليه. فجأة وجد أن هذه الفكرة غير محتملة.

*(سيمضي الوقت، والحمد لله)*

سيمضي الوقت، وسيغادر «البيار». سيغادر الجزائر. سيعود إلى «بيانا»، في إجازات جديدة. وسيجد الهواء النقي، من جديد. ولذة الكلام العفوي، بمجرد أن يضمّ زوجته بين ذراعية، ويقبل جباه أطفاله. سيعودون أحياء ويجدون مكانهم في قلبه.

*(لكن كيف سأتمكّن من ضمّهم بين ذراعي؟)*

وقف يرسم العلامة الحمراء. قريبا سيكون المخطّط الهيكلي مغطّى بالكامل بالعلامات الحمراء، وسيصبح قائداً. الآن أصبح يفكّر بلا مبالاة. المستقبل هو أيضا غير واقعي مثله كمثل العالم المحيط به. على صورة المخطّط الهيكلي، يبدو «طاهر» حزينا ومستسلما. على الصفحة الأولى من الجرائد، كل هذا الحزن اختفى. يبتسم بأدب، كما لو أن المصوّرين الذين يتدافعون حوله كانوا يستحقّون مجاملته وتلطّفه. بجانبه يقف العقيد مبتسما أيضا، ابتسامة رضا شنيعة؛ وكأن الاثنين يتهيآن للذهاب إلى العشاء. استوعب النقيب «دوغورس» سريعا أن هذه الصور هي التي أنقذت حياة «طاهر». بالأمس، لم يتمكن العقيد من كبت رغبته في استدعاء الصحافة للتبختر كالطاووس. أخذ المبادرة من تلقاء نفسه، ودون أن يفكّر في شيء غير إرضاء غروره. لم تُعجب هذه المبادرة السلطات العليا لأنها جعلت «طاهرا» تحت الأضواء. ولا يمكن أن يختفي بعد الآن.

*(بارك الله الغبي)*

يبدو أن غضب الجنرالات كان أسود. «سالان» نفسه، والوزير المقيم بالطبع، اضطرّا إلى التواصل مع باريس وأصدرا الأوامر للعقيد أن يجد حلاً، لكن لا يوجد حلّ. فات الأوان. تضاءلت قيمة العقيد ووهنت سلطته، وهو يتحسّر على أنّ الأمور لم تسر بطريقة مختلفة. سمع النقيب «دوغورس» صوته مغتاظاً في الهاتف. يتذكّر تلميحاته المقيتة، وشعر بالذل لأنّهم يفترضون أنه يستطيع القيام بالمهامّ الدنيئة دون تردّد، كما لو أنّه قاطع طريق، أو منفّذ لأعمال وضيعة وليس ضابطا فرنسيا. خنقه الغضب إلى درجة أنه نسي أن يتصل بالعقيد من أجل الإهانة.

*(ماذا جعلت مني يا إلهي، ماذا جعلت مني؟)*

لكن لا شيء يدوم. مشاعره الجياشة غير قادرة على المحافظة على زخمها. أصبحت باهتة، باردة، وتداخلت جميعها في إحساس واحد مبهم من الضجر البائس الذي لا يغادره. كل شيء مصطنع وخاوٍ. كيف لم يفهم في الحين ما كان يريد العقيد قوله؟ من هو الغبي؟ يبدو أن ما يجري في عروقه دم بارد كدم الزواحف. أفكاره بطيئة تغوص في تأتأة لا تنتهي. إنها لا تهمّه.

*(ماذا جعلت مني يا إلهي، ماذا جعلت مني؟)*

يقول الصوت فعلا «إلهي» لكنه يجهل إلى من يتوجّه هذا السؤال.

* * *

«روبير كليمان». أربعة وعشرون عاما. محاسب في شركة نقل بحري. وصل الجزائر عام 1954، شابٌ ضعيف له شارب مشتّت جعل وجهه صبيانيّا أكثر ممّا هو عليه. يجلس مستقيم الظهر في كرسيه وينظر إلى النقيب «دوغورس»، ورئيس الرقباء «مورو» باستخفاف واضح. قميصه مبلل بالعرق عند إبطيه.

*(اللحظة الحاسمة في حياته)*

ساد صمت طويل، وعندما قدّر النقيب «دوغورس» أنه ساد بما فيه الكفاية، سأله بصوت مرح:

- أنت اشتراكي؟

- هذا الأمر لا يخصّك، ومع ذلك نعم. ردّ الشاب. أنا اشتراكي. هل أصبح ذلك جريمة الآن؟

- آه، لا، أبدا! ردّ النقيب متعجّباً وهو يبتسم. وأضاف بثقة وقد مال على «كليمان»: أتعرف، لا يوجد لدي شيء ضدّ الاشتراكيّين، مطلقا، بل وعلى العكس: أنا مدين بحياتي لاشتراكي، تخيّل

ذلك. بالطبع سيكون لدي الوقت لقصّ هذه الحكاية عليك إذا بقيت مدّة كافية لدينا. «ريمون بلومير»، هل سمعت بهذا الاسم من قبل؟ إنه من المقاومة.

*(الحقيقية. الكذبة)*

هزّ «كليمان» رأسه.

- لا.

- لا؟ كرّر النقيب «دوغورس» بحزن.

- لا. ولا علاقة لي به.

- سيدي النقيب، ربما صفعتان على وجهه ستجعلان هذ الرفيق أكثر أدبا. اقترح رئيس الرقباء «مورو».

- لا، يا «مورو»، لا. قال النقيب. السيد «كليمان» منزعج، ولديه أسبابه لذلك، هذا ما أعتقد. نستطيع بذل الجهد لفهم حركاته الهزلية البسيطة، لأنه يعلم جيّدا أن كون المرء اشتراكيّا ليس جريمة، لكن مساعدة المتمرّدين شيء مختلف. إنّها ليست مجرّد جريمة، إنها خيانة. ما رأيك سيد «كليمان»؟ هل كلمة «خيانة» هي المناسبة أو ستتمكن من إقناعنا بأنّها مبالغة؟

- أنا لم أخن أحدا. قال «كليمان». وليس لديك الحق في القبض علي بسبب أفكاري. أطلب أن تطلق سراحي.

انفجر «مورو» ضاحكا. أبدى النقيب «دوغورس» عتبه.

- أنت لا تفهم الموقف. قال له بنبرة رثاء. سأشرح لك. لا توجد حقوق. لا يوجد سواك، مقبوض عليك هنا لدينا، طيلة الوقت الذي سنراه ضروريّا لذلك. أو في لحظة نزوة مني، أستطيع توقيفك إلى يوم القيامة. عذرا: إلى المساء العظيم للثورة. هل

ترى، أعرف كيف أتأقلم. ليس لدينا كشف حساب لنقدّمه لأحد.
وطالما أنك لم تقل لنا شيئا، صدّقني لن تخرج من هنا.

التفت النقيب إلى «مورو»:

- سنعطي لصديقنا الشاب الوقت كي يفكّر في كل هذا.

أمسك «مورو» شارب «كليمان» قائلا، وقد قطب وجهه:

- هذه طريقتك في الحداد على الرفيق «ستالين»، ها؟ حسناً، إنه يجعلك تبدو كمغفّل، يا صغيري. تبدو كمغفّل مهيب.

- اتركه ينقع في الخلّ قليلا. قال النقيب «دوغورس» بمجرّد غلق الباب. ثمّ ارجع لتطبخه. لا تلمسه. أرعبه، دون أن تلمسه. لا أريد أن يكون لديه ما يقوله عنا عند خروجه من هنا. مفهوم، يا «مورو»؟

- نعم، سيدي النقيب.

* * *

- أحضرت لنا طعاما. أنا لم أذق طعم الأكل طوال اليوم.

ظلّ «طاهر» في جواربه. حذاؤه ملقى في زاوية. كان من جلد مزيّن ودون كعب. ألقى عليه النقيب «دوغورس» نظرة رضا قبل أن يتجهّم لما في ذلك من رمز ملموس وتافه لسلطته. لديه السلطة في الأمر بإظهار زوج حذاء أو إخفائه، وبأن يقرّر من يظلّ عاريا وكم من الوقت. يستطيع أن يأمر بأن لا يتجاوز النهار والليل أبواب الزنازين. إنه سيد الماء والنار. سيد العذابات، ويدير آلة ضخمة ومعقّدة مليئة بالأنابيب، وأسلاك الكهرباء، وبالأزيز واللحم الحيّ تقريبا. يمنحها دون ملل الوقود العضوي الذي يتطلبه جشعها وشراهتها. هو يجعلها تدور، لكنها هي التي تحكم وجوده وفي مواجهتها لا يستطيع فعل شيء.

دائما ما احتقر السلطة والضعف الكبير الذي تخفيه ممارستها، ولم يشعر من قبل بمثل هذا الضعف. حمل أحد الجنود صحنين. وأكل «طاهر» بنهم.

- هل تعلم، قال النقيب «دوغورس»، لديّ الانطباع أنّ القبض عليك، في نهاية الأمر، لم يعجب فعلا السلطات العليا.

- بالطبع. ردّ «طاهر» موافقاً.

- ماذا تعني كلمة «بالطبع»؟

أكمل «طاهر» ما في صحنه من طعام ومسح فمه.

- في لعبة الشطرنج، أعتقد، يوجد مواقف يفهم فيها اللاعب أثناء اللعب، أنه لا يستطيع الفوز. كل الحركات التي يستطيع القيام بها مهما كانت، ستجعل من موقفه أكثر صعوبة. مهما فعل. أنت تفهمني. كل الخيارات تصبح سيّئة. اللاعب يعرف ذلك لكن عليه المتابعة. ربّما إذا كان قويّا، يستطيع إطالة أمد اللعبة، لكن لا شيء حاسم سيحدث. وهذا هو موقفك، حتّى وإن كنت لا تدركه. عدم توقيفي، أمر سيّء. توقيفي، ربّما، أسوء. لا يوجد سوى خيارات سيّئة. بالنسبة إلينا، أيها النقيب، الأمر على العكس. في حالة انتصارنا هنا، سيكون الأمر جيّدا. في حالة خسارتنا، وإذا اعتقلت الجميع، يظلّ الأمر جيّدا. الشهيد أفضل ألف مرّة من المجاهد. ولهذا السبب لن تروا النصر مطلقاً. أنتم تلعبون شوطا جيّدا أو اثنين، وبسبب هذين الشوطين الجيّدين...

رفع «طاهر» كتفيه في صورة حتميّة:

... سينتهي بكم الأمر إلى الخسارة، إن شاء الله! أنهى كلامه وهو يبتسم.

*(وها هو الأمر برمّته. أصولي متعصّب. بارد ويحسب العواقب.*

*هدوءٌ متعصّب ولا مبالاته. هذا هو الأمر في نهاية المطاف)*

خيبة الأمل ليست مؤلمة، على العكس. إنها تجعل كل شيء أسهل تحمّلا، بدءا بتحمّل الذات. لم يشعر النقيب «دوغورس» ولو للحظة، بأنّه خُدع. ليس نادما على الوقت الذي أمضاه هنا، ولا على أنّه انساق بسذاجة وراء ثقة مأسوف عليها. لم يعد لهذا أهمية الآن. كل شيء مكتمل، غير مؤذ وسلس.

- لا ألعب الشطرنج. قال النقيب «دوغورس» وهو يقف. سأتركك.

- أشعر بالأسف من أجلك. تمتم «طاهر».

التفت النقيب «دوغورس» فجأة صوبه.

- عذرا؟ قال بعجرفة. أستميحك عذرا؟

مال «طاهر» إلى الأمام، ويداه مشبوكتان، وركّز عليه عينين حزينتين. شعر النقيب برأفة حارقة مؤلمة. يريد أن يشعر بالغضب، أن يجد كلمات قاسية ثمّ أن يخرج دون رجعة. لكنه غير قادر على ذلك. ظلّ هناك مضطرباً مع يقينيّاته التي تحوّلت فجأة إلى مجرّد رماد.

- أعتقد أنك في حاجة إلى الإيمان، أيّها النقيب، حاجة ضرورية إلى الحياة. قال «طاهر». وقد فقدت الإيمان... أرجوك اجلس لبعض الوقت أيضا...

جلس النقيب «دوغورس».

-... فقدت الإيمان ولا يمكنك إيجاده من جديد لأنّ كل ما تقاتل من أجله لم يعد له وجود أصلا. وأنا آسف لأجلك.

- ماذا تعرف عن ذلك؟ سأله النقيب بصوت بريء.

- الكثير من الأشياء ينبغي التخلي عنها. قال «طاهر» بوجع وهو ينحني أكثر. الكثير من الأشياء. هل تعتقد أني لا أعرف شيئاً؟ أنا

أعرف ذلك وأنت أيضا تعرفه، ويوجد أناس يصلون إليه بيسر. إنّ الأمر سهل جدا بالنسبة إليهم، لكن شخص مثلك... كيف يستطيع الوصول إليه دون إيمان؟ مستحيل. أبداً. مستحيل.

هزّ النقيب «دوغورس» رأسه بهدوء.

- الإيمان؟ سأل نفسه. هل تعتقد أن الإيمان يبرّر ما قمت به في «فيليب فيل»، في «خمّارة ميلك»، وفي «الحاليا»؟

كان يودّ أن يكون سؤاله ساخرا ولكن تفاجأ بأنه لم يكن كذلك بتاتا.

- أو ما أفعله أنا، هنا؟ تساءل أيضا.

- آه، لا. أجاب «طاهر» الإيمان لا يبرّر شيئا... هذا ليس دوره، لا... وإلاّ ما الغرض من التبريرات؟

لم يجب النقيب «دوغورس».

- أرغب في سيجارة. قال «طاهر».

أشعل النقيب سيجارتين. استند «طاهر» إلى الحائط وأخذ يدخّن بسعادة واضحة.

- هل سبق لك أن ذهبت إلى الريف، أيها النقيب؟ سأل بعد لحظات.

- نعم ذهبت. أجاب النقيب «دوغورس». وأعرف إلى أين تريد أن تصل، أعرف جيّدا. لا أقول إن كل شيء على ما يرام، أعرف أن هناك أشياء... هناك ظلم... لكن توجد أساليب أخرى وعندما يعود السلام سترى... نستطيع الإصلاح والتعويض.

أذهله أن يلاحظ إلى أيّ حدّ لم يكن مقتنعا بكلامه. أصبحت الكلمات مجدّدا ثقيلة، عسيرة الهضم وقذرة.

- صحيح، أيها النقيب، قال «طاهر» في ابتسامة. هكذا ستصير الأحوال، بالضبط. نحن من سيصلح كلّ هذا وليس أنتم.

منع نفسه من التثاؤب، ودهس سيجارته بعناية.

- كيف هو الطقس في الخارج؟ سأل.

- الطقس جميل وحارّ. أجاب النقيب «دوغورس»؟

- الطقس جميل. ردّد «طاهر».

- هل تريد استنشاق الهواء للحظات؟ سأله النقيب «دوغورس» أو السير لبعض الخطوات في الممرّ؟ أستطيع إذا كنت تريد، إذا وعدتني أن...

- لا أستطيع أن أعدك، قاطعه «طاهر». ثمّ إن بقائي هنا أسهل. أسهل كثيرا، هكذا.

- كما تريد.

صمت الاثنان. أغلق «طاهر» عينيه. والنقيب «دوغورس»، تقريبا لم يلمس طعامه. تقزّز من بقايا الطعام المتناثرة في طبقه. يودّ مناداة أحد الجنود لرفع الأطباق. يريد أن يدخّن قليلا. لديه الرغبة في النقاش لكنه أطبق فمه. تصيبه الحرب بالضجر الآن. يودّ أن يطلب من «طاهر» أن يحدّثه عن عائلته، ويودّ هو أن يحدّثه عن عائلته. يودّ أن يخبره بعشقه للرياضيات قبل أيّ شيء، وأنه لم يقرّر الانخراط في سلك العسكرية إلا بعد انتهاء الحرب. يودّ لو ينسى الأصفاد، وجدران الزنزانة، والمدينة المغلقة. فتح «طاهر» عينيه ومال نحوه من جديد.

- وعلى وجه الخصوص، لا تفكّر في أنّ عليك الرثاء، أيها النقيب. قال بكثير من الدفء والاقتناع. أرجوك. لا يوجد ما ترثي له. تعرف هذا؟

- لا أرثي لشيء.

- جيّد، إذن. لأنك لست مضطرا للرثاء. ولا أنا.

ثارت رياح جنوبية قوية قادمة من الصحراء. رياح كارثية تعصف برؤوس النخل، كدوّامة في الطرق الخالية. وانتشر على المدينة نور أصفر مشبع بالغبار والرمل. كل الألوان الأخرى اختفت. بياض المباني ذات الطراز الهوسماني أصبحت بلون يميل إلى البنّي الأصفر والمشغولات الحديديّة الزرقاء كأنّها نحتت في عنبر داكن. والرقيب «فيبفاي» وأحد الجنود ينظرون بفضول.

- حسنا، أيّها الرجال، هذه ليست محطّة الأحوال الجويّة، قال متذمّرا رئيس الرقباء «مورو».

- ماذا، يا «مورو»، سأل النقيب «دوغورس»، هل الرجل متّزن؟

بسماع صوته استدار «فيبفاي» وألقى التحية. لديه تورّم على وجنته اليسرى. ليس كبيرا كما كان يتمنّى النقيب. لكن ذلك لم يؤثّر فيه. نظر إلى وجه النقيب النادم، كهيئة الطفل الممسوك بخطئه. لم يعد يشعر بأي غضب تجاهه. بل، ربّما، تعاطف، لا يمكن التصريح به، من أستاذ مدرسة تجاه تلميذ كسول مشاغب.

- سيدي النقيب، بدأ «فيبفاي». كنت أودّ فعلا أن أقول...

أشار النقيب «دوغورس» بعلامة مقتضبة من يده، وقال:

- انتهي الأمر، «فيبفاي». لنكفّ الحديث عن هذا الموضوع. لا أريد الحديث عنه. قم بعملك، وخذ حذرك. حسنا، ماذا لديك؟ سأل النقيب مرّة أخرى وهو يستدير صوب «مورو».

- لا شيء، سيدي النقيب، قال «مورو»، لا شيء على الإطلاق. ينظر إلينا بكبر، ولا ينقصه إلا أن يقول: اغربوا عن وجهي! ويغنّي

مقاطع عن حرّية الفكر وتحرّر الشعوب المقهورة وسخافات من هذا النوع، كأنه فقرة عرض في مسرح المنوّعات.

- لسنا في عجلة من أمرنا، قال النقيب «دوغورس». أنا على يقين أنه لن يتحمّل.

- إذا سمحت، سيدي النقيب، علّق «مورو»، سيضعف تحمّله أكثر إذا ضغطنا عليه قليلا. الواقع أن مثل هذا النوع ليس لديه غير لسانه، لا شيء غير ذلك.

- لا يشبه القبائلي، قال «فيبفاي».

- آه. القبائلي! قال أحد الجنود. ذلك القبائلي شجاع حقاً!

دار نقاش مختصر حول التقدير الواجب لكل المتّهمين الذين تمّ استجوابهم. اتّضح أن شجاعة «عبدالكريم آيت كاسي» ومقاومته كانت استثنائية. هزّ «مورو» ذقنه إعجاباً، وفي عينيه شيء يشبه الحنين. «رجل شجاع، نعم...» أيّد النقيب «دوغورس»، وفزع إذ انتبه إلى أنّه بدأ يجد هذا النوع من النقاشات شيّقا ولا يقاوم.

*(آه، يا لروحنا الفقيرة!)*

ذهن البشر قادر على إدراك أشياء كثيرة متعدّدة بشكل عجيب. لكن منذ اليوم الأوّل في «بوشنوالد»، يتذكّر ذلك النقيب «دوغورس»، فقدت وهجها، واختفت ببساطة، من الوجود. بداية بأسماها، وأكثرها استحقاقا للتوقير، وفي النهاية، أصبحت أصغر فكرة مجردة مستحيلة. في الواقع، لم يعد هناك فكر أبداً، ولا تستقرّ في الذهن المعطّل والمتقلّص إلاّ الاهتمامات التي يميّزها، بصورة لا تصدّق، أسلوب حياة بدائي، أعمى، مريض وعنيد، أسلوب جرثومة مسجونة في ركام ثلج ليس له أجل. أسلوب يَرقة في الظلام. ننظر دون إعياء،

بأعين تشعّ رغبة واحتراما، فم يلوك قطعة خبز في مشهد مثير. ثلاثة أجساد معلّقة في المشنقة، وغيرها محكوم عليها تنتظر دورها، ولا أحد يفكّر في شيء غير اللحظة التي يحمي فيها نفسه من الرياح الباردة لخريف 1944، التي كانت تكنس الساحة وتدير ببطء، الجثث من طرف الحبال.

إنّ الإله الذي نتشبّث بالصلاة له، لم يعد سوى صنم جبّار ووحشيّ ننتظر الهروب أكثر من غضبه اللامتناهي وغير المبرّر. موارد الذكاء كلها انحصرت في حيلة حدسية ومتذلّلة، ولم تبق من الأحاسيس القديمة سوى اندفاعات عنيفة مباغتة لعواطف لا عقلانيّة. مثل التعلّق الاعتباطي الذي أحاط به «ريمون بلومير»، المحارب القديم من الحرب الإسبانية، «أندريه دوغورس». العجوز «بلومير» الذي كان يسخر من إشاراته بالصليب وصلواته، وكان يطلق عليه اسم «الكاهن الصغير». واستخدم كل معارفه وعلاقاته السرّية لكي يكون اسمه على قائمة مغاوير العمليّات الإحصائيّة منقذا «أندريه»، بحركة سحريّة، من الأعباء العسكرية المنهكة التي كانت على وشك القضاء عليه. أرسله للعمل في المحاسبة في أحد المكاتب، وكل مساء، أثناء شربه لحسائه، كان يلقي صوبه نظرة امتنان، كحيوان أليف. إلا أنه لم يذرف دمعة واحدة عندما كان موجودا أثناء شنقه في فبراير 1945. تجمّد مرّة أخرى في حالة استعداد غريب في ميدان التجمّع. لم تدمع عيناه، كما لم يفعل من قبل عندما تذكّر والديه أو «ليزيو»، لأنّ الحياة بما أصبحت عليه حينها، لم تترك له مكانًا للحزن الصافي. وتلك أيضًا هي الجريمة بعينِها. ولكن هكذا تحمي الحياة نفسها وتحفظ استمراريّتها، بأن تصبح عمياء وصماء.

احتاج النقيب «دوغورس» زمنا طويلاً كي يفهم أنه لم يكن مذنباً

في هذه الجريمة، وعندما أجبر الأمريكيون سكّان «ويمار» على زيارة المعسكر، كان هو الذي خفض عينيه من الخزي أمامهم. وها هو شيء مشابه يحدث من جديد، هنا بالذات، من الجهة الأخرى للمرآة المظلمة، له ولكل الرجال الذين هم تحت إمرته. شيء لا يستطيع أن يسامح نفسه عليه، حتى وإن كان لم يعد يخفض عينيه أمام أحد.

*(يا إلهي، ماذا جعلت مني؟)*

- سأمرّ إلى مكتبي.

- حسنا، سيدي النقيب.

ابتسم له «فيبفاي» وردّ عليه بابتسامة.

*(ها هي حدود العالم: قاعات استجواب، زنزانات، وممرّات بلا نهاية، هذه السماء البشعة الصفراء، أجساد ضائعة، أرواح ضائعة، العري الذي لا يطاق)*

هذا كل ما لديهم لتقاسمه: تكهّنات وتقييمات حول مقاومة الأجساد، كما لو أن عملهم لا يتمثل في جمع المعلومات وإنما في تنظيم مجموعة من الدلائل تهدف إلى إظهار معلم خفيّ، ورئيسيّ، وأوّلي، يكون المصدر الوحيد لكلّ قيمة. إنهم باحثون متخصّصون في التشريح الدقيق، أنبياء مسلوبو اللب، والسرّ الذي أعطي لهم اليوم، ليتأمّلوه جزاء حماسهم وتفانيهم، قضى عليهم. أرخى الليل سدوله على كل ما أحبّوه، ونسوه، ربّما، للأبد. يرى النقيب «دوغورس»، من جديد، هامة دون وجه تميل عليه في الجستابو بمدينة «بوزنسون». يسمع النفس اللاهث. يصادف نظرة قلقة مركّزة على جسده المرضوض، وشفتاه ترتجفان من الشراهة والاشمئزاز. يعرف أنه يفهم هذا الرجل بعمق كبير كما لو أنه أصبح جزءا منه هو ذاته. يفهم «مورو»، يفهم «فيبفاي» وأقل جنوده دون الحاجة إلى تبادل كلمة واحدة مع أي منهم. عانوا

التحوّلات ذاتها، وأصبحوا إخوة. ظروف حياتهم الماضية لا حساب لها، كما لا حساب للغثيان الذي يثيره فيه كشف هذه القرابة. لم يعد لديه عائلة أخرى، ومن يكتبون له كل يوم، غرباء. العلاقات التي تربطه بوالديه، «بجان ماري» وبالأطفال اختفت. لم يتركوا خلفهم من بصمة عبثية سوى بضع عادات وأفكار تلقائية يستحيل التخلّص منها، لكنها لم تعد تشير إلى شيء. وربّما حتّى لو أنّ هذه الروابط لم توجد إلا على هيئة أفكار غير متماسكة أو أعراف فإنه من المستحيل تذكّرها. يشعر النقيب «دوغورس» أنه أودي به بعيدا جدا لدرجة أنه لن يعود أبداً. لا بدّ من امتلاك الشجاعة في عدم الرد على الرسائل التي ما تزال ملقاة هناك على المكتب، والمليئة بالجمل والأحاسيس غير المفهومة.

«... قليل من ثلج الربيع، قادم من جبال الجورا جمّدنا حتى العظم...»

«... والجميع فخور بك «أندري»: «جان باتيست»، الذي يستفيد من تقاعده، يشعر تقريبا بالندم، مع ذلك، على عدم القدرة...»

«... وتعلم يا صهري العزيز كم أدين لك بالفضل لاهتمامك بجاك الذي وجد فيك القدوة والأب الذي يستحقّ، في حين أني، لست إلاّ...»

كان يتمنّى لو أن «كلودي» لم تأت إلى الدنيا، وأنّ زوج «جان ماري» الأوّل لم يمت. ربّما ما تزال تفكّر فيه بحنين عندما تمرّ أمام صورته المعلّقة على الحائط في الصالون. قبل النقيب «دوغورس» على مضض أنّه لن يرتقي أبدا إلى مرتبة هذا العشق الأوّل الذي لا يعرف عنه شيئا. أدرك أنّ «جان ماري» أعطته نفسها بحنان أكبر من اللذة. وللمرّة الأولى وجد في نفسه ضغينة مؤلمة لذلك.

*(هذا حقيقي، كل ما أقاتل من أجله لم يعد موجودا أصلا)*

لكن الأفكار التي تهرسه ليس لها، في الواقع، أي وزن، وتشتّتها النسمة الأشدّ رقّة. هو ظالم تجاه نفسه، وأكثر ظلما تجاه من يحبّونه. غير صحيح أنه ابتعد عنهم وما يحارب من أجله لا يزال حياً. هو يكمل مهمّة، شاقّة جدا وقاسية لكنها ضرورية لوضع حدّ للهجمات الإرهابية. لا توجد وسيلة أخرى، وليس من مهامّه أن يبرّر ما يقوم به. فقط شخص جبان وخائن مثل الجنرال «بولاردبير» يستطيع تقديم حالاته الشعورية على متطلّبات حقّ المجتمع. وهو ليس جبانا. لاحقا، سيشرح ذلك «لجان ماري». في الوقت الحاضر، يحتاج إلى ترتيب أفكاره، مرّة واحدة. والتوقف عن هذه التقلّبات المنهكة التي لا طائل من ورائها. قرأ رسالة والديه بتمعّن، وقطع وعداً أن يعطيهم جوابا جميلاً وطويلاً.

* * *

كان يحملق في ورقة بيضاء والقلم في يده، عندما أنقذه جرس الهاتف. كان صوت العقيد، على غير المعتاد، لطيفا ومتّزنا.

– سنقدّم «الحاج ناصر» إلى العدالة. «دوغورس» سنرسله إلى باريس. فليتصرف لإنقاذ رأسه، أو نقطعه له. لقد فعلنا أكثر مما هو مطلوب منا، فيما يبدو لي.

– حسناً، سيدي العقيد. إلى أين ينبغي أخذه؟ ومتى؟

– أنت يا «دوغورس» لن تأخذه إلى أي مكان. انتهى دورك هنا، وينبغي لي، من جهة أخرى، أن أقدّم لك التهاني الحارة لـ....

الصوت صراحة، دافئ وودّي الآن. لكن النقيب «دوغورس» لم يعد يسمعه.

– سيدي العقيد، قاطعه، ماذا يعني أن دوري انتهى هنا؟ ما هي

الترتيبات المنتظرة؟

- الملازم «أندرياني» سيأتي لأخذ «الحاج ناصر» هذه الليلة. فقط «الحاج ناصر»، وسيكون في عهدته إلى حين إرساله إلى العاصمة غدا خلال النهار.

- سيدي العقيد، قال النقيب «دوغورس» محاولا التحكم في عاطفته كي يتمكّن من الشرح. سيدي العقيد، لا أفهم الفائدة من اتّباع هذا الإجراء، وأستأذنكم في أن أستمرّ في تحمّل مسؤولية «الحاج ناصر» إلى النهاية.

- لا، قال العقيد.

- سيدي العقيد، أصرّ النقيب «دوغورس»، إنّه سجيني، و«أندرياني» ليس له علاقة بهذا الموضوع، وأنا أصرّ على...

- اخرس. يا إلهي! انفجر العقيد. سجينك! تقول «سجينك»؟ من تعتبر نفسك؟ أنت ضابط، اللعنة! ضابط في الجيش الفرنسي، ولست زعيم عصابة. وتوجد تراتبيّة عسكرية. افهم ذلك، تراتبيّة عسكرية تتّخذ قراراتها بمنأى عن رأيك، هل هذا واضح؟

- لا أفهم الفائدة، سيدي العقيد، من تدخل الملازم...

- اسمع، «دوغورس»، قال العقيد وهو يتنهد، بصراحة لقد كنت صبورا معك بالقدر الكافي!

توجد أشياء لا تخطر على بالك. لا أعرف ولكن توجد اعتبارات أمنية، على سبيل المثال...

- سيدي العقيد، السجين في أمان هنا و...

- هذا يكفي! صاح العقيد. «أندرياني» سيأتي هذه الليلة، انتهى. لقد أنهكتني سخافاتك.

وأغلق خطّ الهاتف.

* * *

لا يفهم ما الذي يقلقه إلى هذه الدرجة؛ الندم على إضاعة الوقت محاولا كتابة كلمات مستحيلة بدلا من أن يقضّيه في مقابلة «طاهر» أو فكرة تسليمه إلى «أندرياني». أعاد أوراق الرسائل مكانها. أخذ يدور في مكتبه وهو يدخّن. يريد أن يفعل أي شيء لكن لا يعرف ماذا. استدعى «مورو» وأبلغة بقرارات قيادة الأركان.

- حسنا، قال «مورو».

- إليك ما سنقوم به، قال النقيب «دوغورس»: ستختار لي خمسة أشخاص وليكونوا على أهبة الاستعداد. عندما يصل «أندرياني» وأثناء اقتيادنا «للحاج ناصر»، يقدّمون له التحيّة العسكرية.

- التحيّة العسكرية، سيدي النقيب؟

- هل يزعجك ذلك؟ هل يصدمك؟ تكلّم بصراحة، أرجوك.

رفع «مورو» كتفيه.

- اسمع، تابع النقيب «دوغورس» يجب أن نعرف كيف نكرّم أعداءنا. هذا أمر يشرّفنا نحن، هل تفهم؟ هذا مهمّ.

- حسنا، سيدي النقيب.

- «طارق الحاج ناصر» عدوّ ذو قيمة، يا «مورو»، قيمة كبيرة جدا.

- حسنا، سيدي النقيب، سأتولى الأمر، قال «مورو» وهو يعود أدراجه.

ظلّ النقيب برهة من الزمن جالساً على طرف مكتبه ثمّ خرج إلى الممرّ.

- «مورو»! ارجع للحظة! لم أنته بعد.

- نعم، سيدي النقيب.
- هناك شيء ينبغي لك معرفته. ما طلبته منك مبادرة منّي، مبادرة شخصيّة تماما. لم أبلغ بها أحدا، وليس لدي ضمان من أحد، ولست متأكّدا من قدرتي على الحصول عليه. وهكذا، أنت ترى، أنّ ما أطلبه منك ليس أمرا يا «مورو». إذا كان هذا يسبّب لك أي مشكلة، سأطلب من شخص آخر الاهتمام به. ينبغي أن تشعر بحرّيتك التامّة ﬞ اتخاذ قرارك. سأكون سعيدا بمساندتك لكنّي لن أحمل أي ضغينة لك إذا لم توافقني. أعدك. سأجد شخصا آخر. والآن، اتّخذ قرارك.
- سيدي النقيب، سرعان ما أجاب «مورو»، ما تفعله شيء جيّد، هذا هو ما أعتقده. سأحمل على عاتقي هذا الأمر بكل رحابة صدر. وأشكرك على ثقتك، سيدي النقيب.

*(عائلتي)*

- أنا الذي أشكرك، يارئيس الرقباء، تمتم النقيب «دوغورس» وهو يشدّ على يده. أنا الذي أشكرك.

يشعر بنفسه ﬞ حالة جيّدة تماما. يشعر بأنّه نقي ومرتاح. نجح ﬞ أن تأخذ الأمور شكلا مشرّفا. بَان له المستقبل ﬞ ألوان جذّابة. ما يزال أمامه عدّة أسابيع يقضيها وينتهي. سيكون أدّى ما عليه وسيعرف أنّ ذلك لم يكن عبثاً. الأسئلة العبثيّة لن تطرح مجدّداً. سيحصل «طاهر» على الإجراء المنصف الذي يستحقّه. وﬞ يوم قريب، يوم سيأتي مؤكّدا، كل هذا سيكون خلفهم، ولن يعودا عدوّين أبدا. فتح باب الزنزانة وهو منشرح الصدر. رفع «طاهر» عينيه صوبه.

- ها نحن. تمّ تحديد الموعد، أبلغه النقيب «دوغورس» وهو يجلس. سيأتون لأخذك ﬞ الليل، وغدا سيتمّ تسليمك إلى العدالة، ﬞ

العاصمة.

- حسنا، قال «طاهر». غدا. وهذه الليلة أين سأقضّيها؟

- في موضع آخر، أجاب النقيب «دوغورس». برفقة الضابط الذي ينبغي لي أن أسلّمك إليه، أتوقّع، في «سانت أوجين».

أغلق «طاهر» عينيه.

- غداً الجمعة، همس لنفسه. كم أنا محظوظ.

- ماذا تعني؟ سأل النقيب «دوغورس» والقلق الذي ظنّ أنه اختفى، ما يزال يحرق صدره.

ابتسم «طاهر» بحزن.

- هذا ليس مهماً.

كان النقيب «دوغورس» جالساً بالقرب منه بما لا يزيد عن مترين، لكن لديه إحساس بأن المسافة الفاصلة بينهما ليس لها حدود، وأنها كانت دائما هكذا. قلوب الرجال هي هكذا غامضة. وقلب هذا الرجل غامض أكثر من غيره. يودّ النقيب «دوغورس» لو استطاع إخراج «طاهر» من وحدته وأخذه إليه، ولو لحظة فقط. نظر إليه بعطف المتوسّل تقريباً.

*(يوم مّا، هذه الحرب ستنتهي، وأنت وأنا سنجلس من جديد في مواجهة بعضنا، تحت أشعّة الشمس، وسنتمكن من الكلام هذه المرّة. سنتمكن من قول كل مالم يسمح به الوقت لقوله هنا)*

- يوما مّا، هذه الحرب ستنتهي، سترى، قال النقيب «دوغورس».

- أعرف، أيها النقيب. قال «طاهر».

لم يفتح عينيه. سكنت قسمات وجهه ببطء، وبدا عجوزا جداً. تجهّم وجهه الذي كان محفورا بتجاعيد عميقة بادية في زاوية العينين

وعلى الجبهة وفي الخدّين الأجوفين. رويدا رويدا، انبسط وجهه، وعادت ثنية فمه من جديد ببطء، إلى الابتسام. وأخذ قناع الشيخوخة يتشقّق ويتكسّر في صمت. انفتحت العينان لكنّ التوهّج الذي يضيؤها ما يزال عصيّا على الفهم. كل العبارات التي يريد النقيب «دوغورس» النطق بها تبدو له جوفاء وليست في محلّها.

وقبل أن يغادر الزنزانة قال له فقط:

- سآتي لآخذك لاحقا.

خرج يدخّن في الشارع. هبّت الرياح وشمس ساطعة اختفت بتمهّل فوق المدينة. لصقت حبّات من الرمل بالنوافذ والسياج. الهواء مشبع بالغبار والرطوبة. تساءل النقيب «دوغورس» كيف يمكن للمرء أن يتعلّق قلبه بهذه المدينة. إن كان لها سحر فتّان محجوب، فمن المستحيل إطلاقاً أن يشعر به. سيغادرها دون حسرة.

كان الرقيب «فيبفاي»، في قاعة الاستجواب، جالسا على الطاولة يأكل تفّاحة كبيرة قطّعها بخنجر من خناجر المغاوير. كان يلقي بنظرات مجنونة، من وقت لآخر، على «روبير كليمان» المقيّد في جهاز التبريد. كان يبصق الحبيبات أمامه.

- لم يتغيّر الأمر، لاحظ النقيب «دوغورس».

- لا شيء البتّة، سيدي النقيب.

جثا النقيب بالقرب من «كليمان». قال:

- الليالي ليست جميلة هنا، أنت تعرف، أسرّ له. والأسوء، عدم التعوّد على ذلك. لاحظت ذلك. كل ليلة أسوء من سابقتها. من الخطإ القول إنّنا نتعوّد على كل شيء. الأقوال المأثورة لا تعني شيئا كبيرا، أليس كذلك؟

احتفظ «كليمان» بنظرة عناد صامتة.

- على كلٍّ، سترى. لكن هذا من الغباء. لا طائل من ورائه، صدقني. لا تعرّض نفسك لهذا.

سأقول لك أنا، ما سيحدث. غدا، أو بعد غد. أحد أفراد عائلتك، والدتك أو خطيبتك، ستمرّ هنا تسأل عن أخبارك. هل تعرف بماذا سأجيبها؟ لا؟ سأقول لها إنّنا أطلقنا سراحك اليوم بعد الظهر، وأني متفاجئ من أنّها ما تزال لا تعلم عنك شيئا. سأطمئنها بكل لطف وأطلب منها أن تخبرني بكل ما يستجدّ. سأكون قلقاً، قلقاً جداً. أعلم أن قلقي معدٍ بصورة خاصّة. وعندما تغادر، سأعود لرؤيتك وأقصّ عليك المشهد بكل تفاصيله. لن أغفل عن شيء. كن على ثقة. ربّما ستستمع إلي بهذه اللامبالاة الرائعة، سواء بقصد أو دون قصد. ثمّ، ستكون هناك ليلة أخرى وستعيد التفكير في كل هذا. سيكون من العسير عليك عدم التفكير فيه. ستفهم أنه لم يعد لك وجود. ستفكّر في قلق أهلك. إن أفكار الليل مريعة. وهذا أيضا لاحظته. إني ملاحظ دقيق. سينتهي بك الأمر وقد رأيت الأشياء بصورة مغايرة، وعندها ستقول لي ما أريد معرفته. أنا متأكد من ذلك.

انتظر النقيب رد «كليمان» لبرهة ثمّ انثنى بالقرب من أذنه.

- وإذا لم أخطئ، ولشدّ ما يثير أعصابي أن أقع في الخطإ، وهذا مالا أتمناه لك، سأطلق سراحك، وسأرافقك إلى مقرّ عملك وسأستأذن بالانصراف بعد أن أحضنك بحرارة. أؤكد لك ذلك. سأشدّ على يديك، بل وسآخذك بين ذراعيّ. وقبل هذا، سيكون رجالي قد أطلقوا في كل مكان، ولديّ أشخاص مناسبون، الشائعات الأكثر تمجيدا لك. سيتحدّثون عن حماسك لمساعدة جيش وطنك الحبيب. سيتكلّمون على شجاعتك التي بها وافقت على المشاركة في قوّات البحريّة. نعم هكذا. وستتبع إطلاق

سراحك موجة كبيرة من الاعتقالات السرية. سأحرص على ذلك. لا أعتقد أنه سيكون لديك الوقت لحزم حقائبك.

ربّت، النقيب «دوغورس» بودّ على كتف «كليمان».

- هل تعرف ماذا يفعل أصدقاؤك في جبهة التحرير الوطني بالخونة؟ لديّ العديد من الصور إذا كنت مهتمّا.

التفت «كليمان» صوب النقيب وبصق في وجهه. قام «فيبفاي» من على أحد المقاعد.

- اتركه، يا «فيبفاي»، أوقفه النقيب «دوغورس» وهو يمسح وجهه. اتركه. هذا يعني أن السيد «كليمان» قد بدأ يفكّر في الأمر. أغلق عليه إلى الليل منفرداً.

*(خسيس نذل حقير)*

* * *

لم تعد الأوراق بيضاء. على كل واحدة كتب: التاريخ، «والديّ العزيزين»، «زوجتي الغالية، أبنائي الأعزاء». واكتفى بذلك. الساعة الحادية عشرة، والليل قد أرخى سدوله. حاول إجبار نفسه على أكل شيء مّا، وظلّ جالسا. القلم في يده، ويلتفت كلما سمع حركة سيّارة. أخذ مطلع الرسالة التي كان سيرسلها إلى «مارسيل» وألقى بها في سلّة المهملات. تولّد لديه الانطباع أنه حلّ بفعالية، جزءا من مشكلته. «والديّ العزيزين، انتبها لصحّتيكما، خاصّة أنت يا والدي. كل شيء هنا يسير إلى الأفضل. ابنك، أندريه». لا فائدة من إعادة القراءة. يجب وضع الرسالة في ظرف، في أسرع وقت، والتوقّف عن التفكير فيها. ستعود الكلمات. «زوجتي الغالية، أبنائي الأعزاء. يوم حافل بالأعباء منعني من الكتابة لكم مطوّلاً، ولم يترك لي من الوقت إلا لكتابة أنّ كل شيء يسير على ما يرام، وأن أؤكد لكم حبي العميق.»

يهتمّ بداية بالبريد. ذهنه كما هو، قادر على التفكير بمنطق معقّد واتّخاذ قرارات. يعرف كيف يصوغ معطيات مشكلة مّا ويفهمها، ويرتّب المعلومات حسب الأولويّة. يعرف كيف يصمّم الخطط اللازمة لوضع فرضيّات مبدئيّة على المدى المتوسّط والبعيد. لكن، عندما يتعلّق الأمر بكتابة رسالة إلى أهله، فإنّ هناك شيئا آخر ضروريّا، شيئا من الواضح أنّه فقده. الروح، ربّما. الروح، التي تعيد الحياة لكلامه. لقد ترك روحه في الطريق، في مكان مّا خلفه. ولا يعرف أين. غداً، يجب إعادة هذا الامتحان: الكتابة. كتابة شيء مّا، على الأقل. ندم على عدم الاحتفاظ بنسخة من رسائله كي يتمكّن من إرسالها من جديد، كما هي. ومع ذلك، فقد يكون هذا هو ما يفعله، تقريبا، منذ أسابيع. لا فائدة ترجى من وجود نسخة. ينظر إلى المخطّط الهيكلي. عندما ينتهي منه، سيتمكّن من العودة إلى الخلف وإيجاد روحه حيث تركها. وفي الانتظار، فتح ذراعية مستقبلاً الصحراء.

*(وأفكار مثل الكتابة على جدران غرفة خاوية)*

صمت تامّ. هذه ساعة مريعة من الليل. هرب النهار ولن يعود إلا بعد فترة طويلة. إنها الساعة التي امتلأ فيها قلب يسوع بالكرب في ظلام بستان «جشيماني»، وهرب تلاميذه إلى النوم تاركينه لوحدته الفزعة. وقلبه ضعيف كقلب رجل خائف من اقتراب الموت. وقع على وجهه، وأوراق شجر الزيتون ترتعش تحت الريح. ولا شيء سيبعد كأس المرّ. إنها الساعة التي يتسلّح فيها جنود «السنهدرين»[1]، ووالي يهودا الحقير يذرع ممرّات قصره الساكن وهو يؤجّل، دون توقّف،

---

(1) «السنهدرين» صيغة عبرية للكلمة اليونانية «سندريون» وتعني «مجلس». وهو اسم يطلق على الهيئة القضائية العليا المختصة بالنظر في القضايا السياسية والجنائية والدينية المهمة في مناطق اليهود في إسرائيل القديمة.

موعد النوم. بالنسبة إليه أيضا، هذه الليلة تمثّل ليلة الكرب والغمّ ولا يعلم لماذا؟ يفكّر في أهوال الطفولة، ويتأسّى أنها عادت لتزعج الرجل المتقشّف والشريف الذي أصبح عليه. كان يشعر بطعم الدم في فمه، وروحه حزينة حدّ الموت. أطفأ النقيب «دوغورس» الأضواء في مكتبه وأخذ يسير بدوره في الممرّ الطويل الذي ليس له نهاية. يسير بتمهّل، ودون أن يصادف أحدا. لديه شعور أنه سجين متاهة لا نهاية لها. وأخيراً، وجد «مورو».

- كل شيء جاهز، سيدي النقيب، كما أمرت.

- سأتمدّد على السرير لحظات. أيقظني عندما يصل «أندرياني».

وجد كتابه المقدّس في غرفته، واستنشق الورق. هدّأته رائحة الورق والصمغ. قرأ: «حينها سيقول لأهل الشمال: ابتعدوا عني، أيها الملعونون، إلى نار الجحيم المعُدّة لإبليس وأعوانه. لأني جُعتُ ولم تطعموني، عطشتُ ولم تسقوني؛ كنت غريبا ولم تستضيفوني؛ عاريا كنت، ولم تكسوني؛ مريضا كنت وسجينا، ولم تعودوني». تمدّد النقيب «دوغورس» في كامل أناقته على سريره، وعيناه مفتوحتان. هذا النص هو المتاهة التي لا نهاية لها. قام. الممرّات، من جديد، وباب الزنزانة، وأخيرا «طاهر»، الذي سأله وهو يعتدل:

- هل حان الوقت؟

- لا، أجاب النقيب «دوغورس». أتيت أنتظر الساعة معك، إذا كان هذا لا يزعجك. أرجوك، دعني أبقى بالقرب منك، قال أيضا.

ابتسم طاهر له.

أتذكّرك، سيدي النقيب، ولا أزال أراك تتقدّم تجاه المحكمة دون حتّى أن تلقي النظر على قفص الاتّهام الذي كنت، أنا و«بول ماتاي» نشاهدك منه وأنت تعبر. كنت ترتدي جميع أوسمتك وأشرطتك

الجديدة لرتبة مقدّم. ربّما انتهى بهم الأمر إلى ترقيتك إلى رتبة جنرال. لكن لا تغضب منّي، سيدي النقيب، إذا تعلّقت برتبتك أيام شبابك. هي الوحيدة التي تستحقّها نظير شجاعتك وليس لطاعتك الاستثنائية. طاعة كبيرة لدرجة أني ما أزال إلى اليوم غير قادر، ربّما، على أن أقيس مداها، لأني غير قابل للتصحيح، سيدي النقيب، والحب الذي حملته لك ترك أثراً عميقاً في قلبي لم أتمكّن من تجاهله، على أمل عبثي بأني سوف ألتقيك يوما مّا. وبالطبع، أمل خائب دائماً. كما حدث في ربيع 1961 عندما وثقت إلى النهاية في انضمامك إلينا. كنت وقتها لا تزال رائدا. لم أرك مجدّدا منذ معركة الولاية الخامسة. وإذا كنت أعرف مسبقاً أن الانتصار لا يعني لك شيئاً، وأنك ستكون على استعداد لتتركه يضيع من بين أيدينا لمصلحة أصدقاء «طاهر»، الذين لا يقدّرونه كما ينبغي، فإنّي كنت أعتقد أنك، مع ذلك، لن تقبل بأن يراق كل ذلك الدم من أجل لا شيء. هذا الدم الذي لا يعطيه معنى سوى الانتصار. نعم، سيدي النقيب، لا يمكن تصحيحي وأرفض أن أرى أنّك في نهاية المطاف لست سوى تابع، خادم وفيّ ومليء بالامتنان تجاه أسياده من أجل زينة رخيصة تعويضا لدناءته. لم تتحرك، قبلت الإهانة التي وجّهوها إلينا دون مقاومة، مثل التابعين الآخرين، إخوتنا في السلاح الذين علمنا أنهم تراجعوا، واحدا تلو الآخر، رغم كل وعودهم المهيبة. قال لي «بول ماتاي»: «هوراس، لا يمكن أن ينتهي الأمر هكذا.» لا، يا سيدي النقيب، لا شيء يمكن أن ينتهي هكذا، في مهزلة بشعة نهائية، لا هذه الحرب، ولا ثورتنا، لأننا نرفض نسيان وعودنا. ونحن التزمنا بها، مهما كلّف الأمر متخلّين عن كل دوافع حياتنا إلى اليوم. هذا الجيش من الجبناء، هذه البلاد من التابعين التي تخلّت عن ذاكرتها وأدارت بخزي، نظرها عندما كان «بلقاسم»

ومن كانوا معنا يقادون إلى المسلخ. كما لو أنّ دم هؤلاء الرجال ليس له ثمن. ولم أتمكّن، سيدي النقيب من الحيلولة دون وقوع ذلك، لكني أستطيع الالتزام بوعودي وإظهار أن الدم كان له ثمن، ثمن غالٍ كان يجب دفعه.

عندما بدأت محاكمتنا، وقف «بول» وتساءل: «مِنْ ماذا يُعفَى عنّي؟» وبعدها سكت. أمّا أنا، سيدي النقيب، لم أعطهم شرف كلمة واحدة. تركتهم لسخطهم الذي اختاروه، ورفضت المشاركة في سير أي شيء من هذه المهزلة لدرجة أني لم أعترض على ما جعلك محامينا تقوله باعتبارك شاهدا. آه، سيدي النقيب، في نهاية الأمر، قد لا يكون عدم اعتراضي موقفا مبدئيا فقط، ربّما كنت أنتظر منك شيئا مّا. أنا غير قابل للتصحيح. ربّما كنت أنتظر جزءا سرّيا منّي، مختفيا في أعماق قلبي، مسرورا من فكرة رؤيتك مرّة أخرى. لا أحد يستطيع قول ذلك. وسمعتك تقدّم شهادتك أمام المحكمة. سمعتك تتكلّم بكلمات ملائمة عن سلوكنا المثالي أيام حرب الهند-الصينية. وعن صعوبات الخدمة في الجزائر والظروف الاستثنائية المأساوية التي قد تمكّن من تخفيف سواد خيانتنا. وكنت مذعوراً، لأنه بمجرد ما غمغمت، لا أعرف أي حماقة، حول صعوبة حماية الروح أثناء الحرب المستعرة، كانت هيأتك كمن يلقي درسا، سيدي النقيب. كنت تنظر أمامك بتركيز، أتذكّر ذلك جيداً. كان من الجلي أنك كنت هناك بدافع الواجب. كان اشمئزازك واضحاً من أفعالنا، وأعتقد أنّ شهادتك هي، ربّما، السبب في الحكم علينا بالإعدام. لا، سيدي النقيب، لن أتفاجأ من معرفته، لكن ليس لهذا السبب أحمل في قلبي كرها لك. فلقد تعايشت مع الموت منذ فترة طويلة، أليس كذلك، وفكرة أن أعيش مدّة أطول، في هذا العالم الهش والمسنّ، هي التي كانت تبدو لي غريبة، وتقريبا مرعبة.

ربّما لم أعرف أبداً كيف أقدّر قيمة الحياة، مثلما كان يرثيها سلفا ذلك المنتدب الشاب في رسائله التي كان يكتبها لي من تلال جرجرة قبل أن يقرّر زعيم ظلامي قتله، في منطقة تحت سيطرة جبهة التحرير الوطني. ما إن عاد الهدوء إلى المدينة، عندما انتهى عملنا في فيلا «سانت أوجين»، حتّى فعلت كل ما بوسعي كي أبعده عن تولّي مهامّ قتالية، رغم رغبته في البقاء بالقرب منّي. لم يسبق أن اختار شيئا وكان يستحقّ السلام. بالطبع، لا يزال التفكير في الأمر يؤلمني. كنت أريد منحه السلام وإذا بي أرسله صوب قاتليه. لكنّ القتلة كانوا كثرا وينتظرونه، دون شكّ، في نهاية كل طريق من الممكن أن تقوده بعيدا عن القرية القبائلية التي كان يعمل فيها معلّماً. استلمت رسالته الأولى بعد ثلاثة أشهر، أتذكّر ذلك جيدا. كان ذلك، دون شكّ، الوقت الذي احتاجه كي يخرج من الأنقاض التي دفَنَته تحتها فيلا «سانت أوجين»، ويشعر بأنّه ولد من جديد. كان يكتب لي أنه يفكّر فيّ غالبا، ويتمنّى لو أستطيع الذهاب لقضاء عدّة أيام معه لفهم ما يمكن أن تصنعه الحياة، رغم البؤس، ورغم الحرب. وكانت الحرب تبدو له بعيدة جداً. وكتب أيضا أنه ينسى غالبا سلاحه أم أيه تي49- في زاوية من قاعة الدرس. حيث سبق أن تركه ذات صباح، وخرج الأطفال يجرون خلفه لإعادته إليه، في حين أنه قد وصل مشياً إلى طريق البريد، يداه في جيبيه، ومبتسما تحت الشمس التي تكاد تختفي. وكأنه صار، في النهاية، طفلا لا مباليا هو أيضاً. ولا أزال إلى اليوم أتخيّله هكذا. كان يشكرني لإعطائه الفرصة. وكان يشفق عليّ. كان يقول لنفسه إنّه واثق من أنه في يوم مّا ستتاح لي الفرصة للولادة من جديد، وأنه لن يعود إلى الوطن الأمّ، حتّى عندما تنتهي الحرب. سيظلّ هناك مع أطفاله ليعلّمهم كتابة أسمائهم بحروف جميلة دائريّة، ويعلّمهم الأناشيد،

ولعب سلسلة الأطفال مع إطلاق صرخات الفرح في طرقات القرية، وجدل كيلوات خيوط الإسكوبيدو التي أرسلتها له والدته بالبريد، والتي كانت الفتيات يعلّقنها في أطواقهنّ الملوّنة وهنّ يضحكن. كتب لي أسماءهنّ التي ضاعت من ذاكرتي: «جيداء»، «غزلان»، أو «ضحيا». كان يكرّر أنه لن يتركهنّ بتاتاً. سوف يظلّ ينظر إليهنّ متعجّبات من التقاط صور لهنّ وهنّ جالسات على حافّة فناء المدرسة، تحت شمس الصيف التي تجعل ألوان فساتين العيد تتلألأ عليهنّ. ولن يبتعد، إطلاقاً، مرّة أخرى عن ابتساماتهنّ التي كانت تفطر القلب وتملؤه، في الوقت ذاته، بحبّ للحياة لا يقهر، جعل كل ذكريات الألم والموت التي كانت تمنعه أحيانا من النوم، غير قادرة على أن تكدّر صفوه. بالطبع فقد الإيمان بالإله، لكن الإيمان الجديد الذي أنعشه يبدو له طويل الأمد، ولم يكن هناك ما يندم عليه. كان آباء الأطفال يدعونه أحياناً لتناول الطعام معهم: كسكس بخضار قليلة. وفي أيام السعد، لحم خنزير برّي مشوي، تمّ نزع الجزء النجس منه بعناية، ولعنه ثمّ إلقاؤه في النار. كان يرجع إلى موقعه متأخّرا أكثر من ذي قبل، وبخطوات فاترة دائماً. وفي إحدى ليالي 1959، وقد كان عائدا من إحدى هذه الزيارات، لقي حتفه. وضابط الصفّ الذي كان يدير المكتب لم ينتبه لغيابه إلا صباح اليوم التالي. وجدوا جثّته مشوّهة على قارعة الطريق. وسلاحه أم أيه تي49- اختفى. لو كنت رئيس المكتب، سيدي النقيب، لكنت اعتقلت كل العائلة التي استضافته للعشاء، وكانت تعرف أنه سيعود وحيدا. لكنت أحرقت أكواخهم القذرة. لكني لم أفكّر حتّى في أن أقترح ذلك على ضابط الصفّ الغبي ذاك. قبلت أن أصدّق، أنا أيضا، في ذكرى المنتدب الشابّ، أنّ كل الابتسامات التي أضاءت أسابيعه الأخيرة كانت صافية ومخلصة. طلبت فقط أن يسمح لي أن

أكتب، أنا شخصيّا، الرسالة التي ينبغي إرسالها إلى والديه. كان ذلك على غير العادة، لكن ضابط الصفّ المسؤول وافق دون إبطاء. الواقع أني أرحته من عمل مرهق، فهو ما كان ليجيد أكثر من التقيد بالصيغ الجاهزة ذاتها التي استخدمتها أنت نفسك في محاكمتي، سيدي النقيب. السلوك المثالي، والظروف المأساوية، وإلى ما ذلك من هذه السخافات. ولا مبالاته كانت ستشوّه ذكرى هذا الصبي التي تهمّني كثيرا. نعم، إنها تهمّني، وأنت الذي علمتني، سيدي النقيب، ضرورة اتّباع الطرق الملتوية للكذب من أجل صون ذاكرة الأموات وحقيقتهم الأساسيّة. وهي نفيسة أكثر من الحقيقة التافهة للوقائع. أخذت أغراضه الشخصية ورسائل ومعجما لغويّا صغيرا عليه عدّة جُمل بلغة القبائل مع ترجمتها، والتمثال الأسود للمسيح مغلّفا بصحف قديمة، والعشرات من الصور التي التقطها في القرية. وجّهت الرسالة إلى والدته، كتبت لها كل المودّة التي كنت أكنّها لابنها، الذي اشتغل تحت رئاستي بضعة شهور وتمكّنت خلالها من تقدير مزاياه الإنسانية، واستقامته الأخلاقية الخالدة. تكلّمت على عمله المهمّ كسكرتير معي، والذي أدّاه على أكمل وجه، كما كتبت أنّ المهمّة التي كُلّف بها، وتوافقت مع مبتغاه العميق، كانت في منطقة القبائل. أكّدتُ لها أنه كان سعيدا، سعيدا جدا إلى درجة أنه لم يتمنّ المغادرة، رغم وعيه بالمخاطر التي تتهدّده، ربّما تجد فيها سلوى لحزنها. كتبتُ لها أنّ موته حدث سريعا، وأنه لم يعانِ. أقسمت لها بذلك، سيدي النقيب. كنت أعرف أنّنا سنعيد لها جسده في تابوت مختوم وأنها لن تعرف ما جعلوه يقاسي تلك الليلة. وكتبتُ لها أنّ جميع الأطفال الذين أصبحوا أطفاله كانوا حزانى ولا عزاء لهم. لن ينسوه مطلقاً. سيحملون معها حداد ولدها، في قرية لا تعرفها، على تلال جرجرة. وهذا على الأقلّ، سيدي النقيب،

يمكن أن يكون حقيقيّا. انتهيت بأن اقترحت عليها زيارتها إذا كانت ترجو ذلك، عندما أعود إلى الوطن. بالطبع لم تسنح لي الفرصة أبداً. حزمتُ كل أغراض المنتدب الشابّ، ما عدا صورة الفتيات الصغيرات في فناء المدرسة، «ماسيفا»، «ليلى»، «تيزيري»، والتي احتفظت بها بما أنّ لي الحقّ، سيدي النقيب، فقد التقطها من أجلي، من أجلي أنا فقط. وإلى اليوم أيضا، أتذكّره وأنا أنظر إليها. أتذكّر ذلك تماما. ولكني أفكّر فيك أيضا، أخي، سيدي النقيب، كل مرّة أصادف فيها الأعين الحادّة والابتسامات التي مُنع عليك مثلي، فهمها. أرسلت المغلّف والرسالة والتحقت بالولاية الخامسة حيث كانت كتائب العقيد «لطفي» تضايق مواقعنا قبل اللجوء خلف الحدود المغربيّة. كان ينبغي أن تشعر بالراحة أن وجدت الحرب كما عهدتها دائماً، سيدي النقيب. ضدّ أعداء يحملون السلاح، في وضح النهار. انتزعوك أخيراً، من كهوف «البيار» الرطبة. لكن يكفي النظر إليك لوهلة لمعرفة أنك لم تكن مرتاحاً. ربّما لأنك، سيدي النقيب، فهمت أن لا شيء يستطيع إيقاف ما سبق أن بدأ، وأنه حتّى هنا، على أبواب الصحراء، الشيء الوحيد المهمّ هو الحصول على المعلومات. عندما تعرّضت إحدى دوريّاتنا للذبح، بالقرب من إحدى القرى جنوب «بشار»، دخلت القرية مع رجالي. كان الأطفال يجلسون القرفصاء يمضغون النعناع البرّي، وأعينهم مغلقة، ويمسحون، من وقت لآخر، اللعاب الأخضر السائل على أذقانهم بكمّ السترة. وبالقرب منهم كلب ذو آذان حادّة، مشنوق، يغطّيه الذباب، في فرع شجرة. أتذكّر ذلك جيّداً. جمعتُ أهل القرية، وأمام الجميع أطلقت رصاصة على شيخهم. وقع على جنبه وانبسط وشاحه على الرمل. أطلقت امرأة صرخة، ولكنّ الأطفال لم يتحرّكوا. طلبتُ من «بلقاسم» أن يترجم لهم ما أقول. قلتُ لهم إنّ

عليهم التخلّي عن الحياة. قلت لهم إنّهم سيموتون جميعا، وليس لهم حقّ الاختيار بين الحياة أو الموت وليس لهم سوى اختيار اليد التي ستقدّم لهم الموت؛ إمّا يدي أو يد المتمرّدين. قلت لهم إنّي سأعود، في كل مرّة يقدّمون معلومة لجبهة التحرير الوطني وليس لي. في كل مرّة يقدّمون فيها الطعام لفلاّق، سأعود. في كل مرّة سيعطونه ماء من آبارهم ليشرب قطرة واحدة، سأعود. عليهم معرفة من أكون، وعندما يعرفونني، فإنّ الشيء الوحيد الذي سيتمنّونه هو ألا يكون موتهم على يدي.

هل أخبرتك كيف تحصّلت على المعلومات التي سمحت لنا بحلّ هذا الكمين، بين «تاغيت» و«بشار» عام 1960؟ هل قلت لك ذلك، سيدي النقيب؟ لا أظنّ. لكن لست في حاجة لأن أخبرك، أليس كذلك؟ لأنك كنت تعرفه جيّدا، حتّى وإن كنت لا ترغب في سماعه. كان الأمر ليلا، سيدي النقيب. الهلال يسطع في السماء المرصّعة بالنجوم. على جانب الطريق الصحراوي، جمل صغير كان يرضع من أمه وأقدامه الهزيلة ترتجف. طلبت تثبيت المدفع الرشاش على أحد جانبي الطريق، وعندما وصل رجال الكتيبة فتحت النار. والمجموعة التي كانت تحت إمرتي حاصرتهم من الخلف عندما حاولوا الهرب. قبضنا حينها على العشرات. سألتهم من هو ضابطهم فأشاروا إلى إحدى الجثث. طلبت منهم الجلوس على ركبهم على حافّة الطريق. لم يتوسّلوا، ولم يطرحوا سؤالا واحداً. كانو يعلمون، دون شكّ، ما كان سيلحق بهم. وقعوا إلى الأمام، على وجوههم، في الرمل. سمعتُ الجمل الصغير يطلق صرخات مفزعة. كانت أمّه قد أصيبت بطلقة. انحنى على الجسد الضخم العاجز. كان يحاول الوصول إلى ضرعها فهو لم يكتف بعدُ، لكنه لم يتمكّن. رفع رقبته الطويلة صوب القمر

وأخذ يصرخ. قتلته أيضاً. ما كنت أريد تركه يموت من الجوع. عندما لحقت بك، سألتني عن عدد السجناء، وقلت لك إنه لا يوجد لدينا سجناء. أضفتُ أني أريد جثّة الضابط، فأشرت إليّ بالذهاب وقد أشحت عني جانباً، كما لو أنّ الشيء الوحيد الذي كان يستحوذ على اهتمامك هو ألا أشكّ في احتقارك لي. لكن، الحقيقة، أني أنا الذي كنت أحتقرك تلك الليلة، وأكثر من أي وقت. في اليوم التالي، رجعتُ إلى القرية مع جثّة ضابط جيش التحرير الوطني. ألقيتها في الساحة أمام القرويّين المجتمعين. قلت لهم إنّ من كان يهدّدهم قد مات، مع كلّ رجاله، أمّا أنا فلا أزال حياً، وأنه ينبغي الخوف فقط من الأحياء. اقتربوا من الجسد. نظروا إلى وجهه، وأقسم لك، سيدي النقيب، أنه رغم رعبهم وفقدان الأمل، شعرت للحظة بامتنانهم. كنتُ في حاجة لرعبهم وفقدان أملهم، سيدي النقيب. كنت محتاجاً لذلك كي نتمكّن من الحصول على النصر، الذي سُرق منّا بتواطئك المخزي. النصر الذي كان على كل هؤلاء الناس شكرنا عليه للأبد. أتعلم؟ لم أنسهم. وعندما طلب منّي سائق سيّارة الأجرة، سنين بعد ذلك أمام فيلا «سانت أوجين»، أين يقع منزلي. قلت له اسم تلك القرية. جنوب «بشار». قال لي إنه لم يكن يعرف أنها بعيدة جدّا هكذا، وإنه لا يستطيع أخذي إليها. ليس لبعد المسافة، فقد سبق له القيادة إلى أماكن أبعد منها، وكان يستطيع السفر معي إلى الجنوب لعدّة أيام، وسيمنحني تخفيضا. السبب في رفضه كان الخطر. كان هناك الكثير من نقاط التفتيش المزيّفة. أخبرني عن تعرّض موكب زفاف كامل، كان في طريقه إلى «تاغيت»، للذبح، بالقرب من قريتي تماماً. حتّى الموسيقيون. وسألني إن كنت أعرف ذلك. أخبرته أني أعرف، وأني أعرف جيّدا الطريق التي دارت عليها أحداث الواقعة. ربّما ثبّتوا نقطة

تفتيشهم المزيّفة في المكان ذاته الذي أبادت فيه مدافعنا الرشّاشة الكتيبة. انتظروا في أزيائهم المنتحلة، والعروس التي كانت تسمّى: «زهرة»، أو «حياة»، أو «صباح»، أجد صعوبة في التذكّر، اعتقدَت أنّ تدقيق الشرطة الذي لا ينتهي سيؤخّر وقت الحفل، والدُخلة. كان الناس يغنّون، سيدي النقيب. كانوا يغنّون: «أحبّك، سارة، دعيني أظلّ في قلبك.» رأت العروس أنّ أحذية رجال الشرطة ليست حكومية. أبطأت السيّارات، والأعين جميعها مركّزة على الأحذية غير المتجانسة. أطلق أحدهم صرخة، في حين صوت آخر وحيد كان يكمل الأغنية: «قد أموت من أجلك، سارة.» علموا حينها جميعاً أنهم لن يصلوا إلى «تاغيت»، وأنهم لن يتمكّنوا أبداً من الجلوس في ظلّ الخيمة المنصوبة لهم بالقرب من النخلة، عند سفح جدار ترابي. التصقت العروس بزوجها الذي وضع يده على بطنها العقيمة، بطن الفتاة المُسنّة التي لم تعد تصلح لشيء. أخرجوهم من السيّارات المزيّنة بشرائط بيضاء. كان الجوّ جافاً لدرجة أن دماءهم جفّت على الفور تقريبا. دحرجت رياح الصحراء طبلة في الغبار. نفخت النسيج المقوّى لفستان الساتان، وأطارت الدنتيلاّ المقطّعة وحملت إلى البحر حبّات الرمل الورديّة الصغيرة. كان سائق سيّارة الأجرة يقول بحزن إنّ الحياة أصبحت قاتمة، قبل أن يعود للابتسام وهو يعلمني أن السماء أظلمت، وأن: «هنا لدينا الفصول الأربعة في يوم واحد، أترى؟» قلت له، أعرف. بمعنى من المعاني، هذه بلدي أيضا. لكنّه عاد حزيناً يتمتم: لا، يا سيّدي. هذا لم يعد وطنا، وطن رجال. هذا مسلخ وسجن ونحن خرفان العيد. أخبرني أنّ ابنته البالغة من العمر اثنا عشر عاما كانت تتبوّل في سريرها، كلّ ليلة. كانت تستيقظ مفجوعة وهي مغطّاة بالبول. كما لو أنّها لا تزال في الثالثة، وربّما الثانية. كانت ترى

أعين الذئاب اللامعة تترصدّها في الظلام، والليل مليء، من جديد، بالذئاب والوحوش. كانت تشعر بأنفاسهم الحارّة في عتمة كوابيسها فتستيقظ وتصرخ. كانت رائحة البول القويّة تصل إلى أنفها. كان ذلك يخيف إخوانها الذين كانوا يصرخون هم أيضاً. لم يكن بيدي حيلة. فكّرنا أن نداعبها، ونعاقبها، قلنا لها إنّها لم تعد طفلة. وكان الأمر يتكرّر في كلّ ليلة. حتّى لو ضربناها ما كان سيتغيّر شيء. وهو لا يستطيع أن يضرب ابنته لأنّه يحبّها ويتفهّم رعبها. ضمّها بين ذراعيه. كانت نحيفة ونتنة وهو ينتظر أن تعود إلى النوم. كان يقول: أنت محظوظ، سيدي، أنّك رحلت، لكن أترى، ها هي تمطر، وبعد ساعة ستشرق الشمس. لم أجبه بشيء وانصرف تفكيري إلى المنتدب الشابّ. تساءلت ما إذا كان إيمانه الجديد في قوّة الحياة سينجو، ولكم من الوقت، أو أنّه كان سيفهم أخيرا أنّ ابتسامة الأطفال لا تعني شيئا وأنّنا نحن، سيدي النقيب، الذين كنّا على حقّ في عدم فهمها. تذكّرتُ أنّ طرق الكذب تقود أحياناً إلى الحقيقة، هكذا علّمتني. لأنّي كنت على يقين، كما كتبت لوالدته، أنّه حتّى لو شعر بدنوّ مقتله فما كان سيريد المغادرة. هكذا تولد، يا سيدي النقيب، الحقيقة من رحم الكذب. رضي المنتدب الشابّ بالموت، والنقيب «ليستراد» كان بطلا، فلماذا هما جديران بالشفقة؟ لكن أنت، سيدي النقيب، اضطررت لمتابعة الحياة، كأيّ تابع، من خلال تمسّكك بمبادئ أنت نفسك لم تعد قادرا على تصديقها. أدركت تلك الليلة، على طريق «تاغيت»، وأتذكّرها جيّداً، كنت تنظر إلى القمر كما لو أنّك كنت وحيدا في هذا العالم، ولم يعد لديك القدرة على الاستمتاع بانتصاراتك. حتّى احتقارك كان علامة ضعف. هل كان من الضروريّ أن أحبّك، سيدي النقيب، كي لا أفهم أنّه، منذ تلك اللحظة، لم يعد هناك ما يستحقّ

الاهتمام من وجهة نظرك. ولا حتّى الشخص الصغير الذي داخلك. وكنت مع ذلك شديد الارتباط به. لو أنّي فهمت ما أصبحت عليه لما أملتُ في انضمامك إلينا عام 1961. وشهادتك المثيرة للشفقة في محاكمتنا ما كانت لتفاجئني وتجرحني إلى هذه الدرجة، كما جرحتني عديد المرّات، سيدي النقيب، دون حتّى أن تدرك ذلك. من الصعب التنازل عن الحياة، أعرف ذلك تماماً. أعرفه منذ فترة طويلة، سيدي النقيب. وقد منعتُ محاميّ من طلب النقض. لم أعد أريد الانتظار، لم أعد أريد سماع خطابات. لم أعد أريد أن يكون عليّ رؤية وجه والديّ المدمّر في صالة استقبال مدينة «فريسن»، ولا دموع أخت «بول ماتاي». وأتمنّى أن لا يستمرّ كلّ هذا. تمكّن «سالان» من إنقاذ رأسه، وعلمت أنّهم لن يعدمونا. الليلة التالية للإعلان عن العفو عنّا، حاول «بول» أن ينتحر. لكنّهم أنقذوه. لم يتركوا له حتّى الحقّ في اختيار موته. رأيته عند خروجه من المستشفى، سيدي النقيب، وقال لي: يا لها من مهزلة، يا «هوراس». يا لها من مهزلة، ويا له من عار». أجبته: «نعم». وأخذته بين ذراعيّ.

في 1968، تمّ إطلاق سراحنا، وعدنا إلى بيوتنا. لم أر قريتي مجدّدا منذ رجعت من الهند-الصينيّة. لكن ما يزال لدي هناك منزلي ومساحة في المقبرة. أمضيت سنوات دون أن ألقي التحيّة على مناصري الشيوعيّة الذين لعبت معهم أثناء طفولتي، وكانوا هم، يرون فيّ الشيطان. لكن كلّ شيء لا قيمة له، سيدي النقيب. كلّ شيء يُنسى سريعاً جداً. الكراهية تصبح باردة ثمّ البرودة تتلاشى، وعدنا نلعب الورق في خمّارة القرية. في الشتاء بقرب النار وفي الصيف تحت العنب، إلى أن أصبحنا جميعا عجائز. توقفت عن الاتصال «ببول» لأنه لم يعد لدينا ما نقوله. ولم أتخلّ عن الأمل في رؤيتك يوما مّا،

سيدي النقيب، صدفة ربّما. لم أعد أذكر اسم قرية زوجتك، وعلى كلّ حال، لن أذهب إليها بكلّ تأكيد. لكنني كنت أنتظر دون توقّف لقاءك. ربّما في المدينة، في ركن إحدى الطرق أثناء التبضّع. وكنت أعرف أني سأتعرّف عليك لأني سبق أن رأيت وجه العجوز الذي أصبحت عليه. رأيته يظهر أمامي في لحظة، في ذلك اليوم الربيعي عام 1957. أتذكّر ذلك تماماً. لا أعرف ما الذي يجعلني حريصا هكذا على رؤيتك من جديد. ربّما كي أسدّد ديناً قديماً تأخّرت في الوفاء به كلّ هذه السنين، لأني، منذ فترة طويلة، أدين لك بشيء، سيدي النقيب، لم تعد لدي الرغبة في الاحتفاظ به لنفسي. لقد جهّزنا كلّ شيء، أنت تعلم. أثناء أحلامك الوهميّة، جهّزنا كلّ شيء. في أحد الأقبية، ثبّتنا خطافا في السقف، وربطنا فيه حبلا. مهما كان ما تعتقده، سيدي النقيب، فأنا على وجه الخصوص، لا أحبّ جعل أحد يتألّم. أكتفي بالقيام بما هو ضروري. وأفعله بإتقان.

عندما كنّا في طريقنا صوب «سانت أوجين»، لم يقل «طاهر» شيئاً. كان جالساً، ينظر إلى يديه المقيّدتين، بين المنتدب و«بالقاسم» الذي كان يدندن أغنيته. عندما وصلنا إلى الفيلا، شاهد الحبل والكرسي. لم تظهر عليه المفاجأة. لو كنت أستطيع قتله دون أن يعلم بشيء لفعلت. لكن لم يكن ذلك ممكناً. حتّى أنا، أريد الموافقة على أن يقدّم للعدالة في هذا الأمر، سيدي النقيب. كان شجاعاً، رغم أنّ هذا لم يكن ذا أهميّة فعلا. خفتُ لوهلة أن تأتيه فكرة سخيفة بإلقاء خطبة علينا، أو التلفّظ بعبارة تاريخيّة. لكنه لم يفعل. كان يدرك الموقف، وأنّ تلك ليست اللحظة المناسبة لممارسة تصرّفات طفوليّة مثيرة للسخرية. لكنه مع ذلك قال شيئاً. نعم، قال شيئاً ويجب أن أقول لك الحقيقة. التفت إليّ وسألني: «هل بالإمكان نقل رسالة مني إلى النقيب «دوغورس»؟»

نظرت إليه وأجبته: «لا». رفعناه مباشرة على الكرسي كي نضع الحبل حول عنقه. دفعت الكرسي بقدمي ولف «بلقاسم» خاصرته بذراعيه وتعلّق به. المنتدب الشابّ ظل واقفا قرب الباب. أدار رأسه. كلّ شيء انتهى سريعاً جداً. هل كان ينبغي لي أخذ رسالته، ربّما كان ينبغي لي ذلك. على الأقلّ أن أقول لك صباح اليوم التالي، إنه أراد أن يقول لك شيئا، لا أنت ولا أنا سنعرفه، وللأبد. لكنّي لم أتمكّن من اتّخاذ قرار بهذا الشأن، سيدي النقيب. تعاملت معي ككلب، ولم يكن في نيّتي التخفيف من ألمك، بل وكنت أريد، ربّما، أن أجعلك تعاني أكثر. كنت أستطيع أن أدع كلّ هذا مطموراً في قاع كهف «سانت أوجين» للأبد. لكن ولائي غير قابل للتصحيح. وللحقيقة، سيدي النقيب، لا شيء مطمور. إني أذكر كلّ شيء، أذكر جيداً، وحملته معي، الأحياء والأموات. ولهذا كان عليّ العودة إلى هناك. أرض طفولتي الناكرة للجميل تزداد غرابة، يوما بعد يوم. لم أكذب على سائق الأجرة عندما قلت له إنّ وطنه هو وطني أيضاً، لأنه، حقيقة، لم يعد وطناً، ولا يوجد وطن لرجال مثلي، أو مثلك، سيدي النقيب. الليلة السابقة لمغادرتي، دعوت سائق سيّارة الأجرة إلى العشاء في مطعم «سانت أوجين» الذي لم تطأه قدماه مسبقا. شربنا كأساً تحت أغصان الياسمين. وكان يلقي نظرات قلقة إلى النادلين، وكأنه ينتظر أن يلقى به في الخارج، في أيّ لحظة. في اليوم التالي، قبل أن يأخذني إلى المطار الذي يحمل اسم أحد أعدائنا، عرّج بي لتناول الشاي في منزله، في أحد المساكن الشعبيّة بحيّ باب الواد. كانت تعيق الحركة في صالون جلوسه صفائح بلاستيكيّة معبّأة بالماء وضعت ابنته، عليها الشاي وأطباقا مليئة بقطع من الحلوى أحضروها من محلّ حلويّات دفعوا له، دون شكّ، ثروة. لم نقل شيئا مهماً. كانت زوجة سائق الأجرة تهدهد طفلا يبكي.

جلست ابنته في مواجهتي. نظرت إليّ بابتسامة، وهي النظرة ذاتها التي صادفتها مرّات كثيرة على هذه الصورة التي تمّ التقاطها منذ زمن بعيد، صباح صيف في منطقة القبائل. لم أسألها عن اسمها. عندما غادرت، قامت كي تقبّلني. كانت رائحتها عطرة. وانطلقنا صوب المطار، سيدي النقيب. كنت أعلم أني لن أعود مرّة أخرى. صافحت سائق سيّارة الأجرة وتركت خلفي مكبّ نفايات الحرّاش، تركت الطريق على شاطئ البحر، في «سانت أوجين»، ومنازل القصبة المهدّمة، وأعين الذئاب اللاّمعة في الظلام، وكلّ الأطفال الذين ييتسمون دون أن يعلموا لماذا. وتركت، بعيدا جداً، في الجنوب، على طول الطريق الصحراوي لشبابنا القاسي، ظلّ عروس دون اسم تنتظر ليلة العرس بين «تاغيت» و«بشار».

## 29 مارس: اليوم الثالث

جان، 2، 24-25


Twitter: @alqareah

إتقان الحركات إهانة لا تغتفر. القدم اليسرى إلى الخلف متّكئة على العقب ما يتيح للجسد الدوران بمرونة في حركة واحدة سلسة. الظهر مستقيم بشكل مثالي. وعظام الكتف بارزة كأنها نصل. والقفا محلوق تحت حافّة القبّعة الحمراء. يريد النقيب «دوغورس» إفراغ مخزن مسدّسه الآلي في هذا القفا المكروه. لكن فات الآوان. بقي جالساً خلف مكتبه يرتجف من العار واليأس. الليلة السابقة، كان الوقت متاحا، لكنه كان ساذجاً، الليلة السابقة. كان يتقدّم بتمهّل بجوار «طاهر» أمام الجنود الذين قدّموا له تحيّة السلاح، بأمر من رئيس الرقباء «مورو». امتلأ بإحساس الرضا على أداء المهمّة كما ينبغي، حتّى أنه لم يردّ على الملازم «أندرياني» عندما تمتم وهو يهزّ رأسه: «أوه! أندريه، يا إلهي... أندريه». كان يعتقد أن لا شيء ممّا يفكّر فيه هذا الرجل يمكن أن يصيبه. ومع ذلك، فإن تلك اللحظة كانت هي المناسبة التي توجّب عليه فيها إخراج مسدّسه من جرابه والقضاء عليهم جميعا ككلاب مسعورة: «هوراس أندرياني»، ومنتدبه النمس، و«بلقاسم». لكنه لم يفعل شيئا. لم يفكّر في ذلك، ولا حتّى لثانية. بالتأكيد، لأنه لم يكن يترك «طاهر» يبتعد عن عينيه في حين كان «بلقاسم» يدفعه بعنف في السيّارة وهو يغمغم بشيء باللغة العربيّة. كان يأمل لو أن «طاهرا» يرجع لمرّة أخيرة صوبه ويبتسم له. لكنه لم يفعل. ببساطة، ظنّ النقيب «دوغروس»، أن تلك لم تكن الطريقة المفترضة لوداعهما، حتّى وإن كان عليهما أن يلتقيا مجدداً يوما مّا، في وضح النهار. والآن،

فات الأوان وللأبد. نام ملْءَ جفنيه لأوّل مرّة منذ فترة طويلة في الساعة التي كان الحبل يُلَفّ حول رقبة «طاهر». لم توقظه آلام سكرة الموت. في الصباح، شرب قهوته ودخّن بهدوء أمام النافذة المفتوحة دون أن يعلم أنه أصبح ضالعا في الجريمة التي سيكون مستحيلا عليه التكفير عنها.

*(سلبته مني، أندرياني، سلبته مني)*

كيف يكفّر عن سذاجته، عن حماقته التي لا يمكن سبرها، عن الفراغ المطلق لافتراضاته المتفائلة؟ لم يقدّر أنّ الصفاقة باتت مسيطرة لدرجة أن أكذوبة مّا لم تعد في حاجة إلى أن تتزيّن بحلية شبهة الحقّ. يكفي التأكيد، مع غمزة عين مفهومة: «طارق الحاج ناصر انتحر في زنزانته». وانبثق شعور وضيع بالخوف جعلهم أخيرا، يحبّون الأكذوبة متجاهلين في ذلك ما هو بديهيّ ومُهتمّين اهتماما أقلّ بأن يتمّ تصديقهم. آه، نعم، أحبّوها، ورغبوا فيها بكلّ ما في أرواح العبيد من قوّة. وإذا أضفنا السخرية الأكثر وقاحة، والأكثر برودة، فإنّ شغفهم لم يعد له حدود. لم يقدّر النقيب «دوغورس» شيئا، لم ير شيئا، لم يفهم شيئا. لم يبق له إلا العزاء البائس بأنه لم يكن يريد ذلك.

*(لكن هذا هو الخطأ، وليس العذر: الخطأ)*

يريد أن يهاتف العقيد. يقول له إنه ليس قاتلا حقيرا. لكنه لا يستطيع لأنه هو أيضاً قاتل. يعرف بكلّ تأكيد: يحسب فقط ما فعله، وليس ما أراد. تقدّم في الممرّ والضوء الكهربائي يؤذي عينيه، وساقاه ثقيلتان. عندما وجد «مورو» أخذه من ذراعه وقال له بصوت خافت، وهو ينظر إلى عينيه:

- غادر، يا «مورو». سلبوه مني.

- تعال، سيدي النقيب، قال «مورو» وهو يسير به إلى المطبخ. تعال من هنا، اجلس. هل تريد بعض الماء؟

ألقى النقيب «دوغورس» بنفسه على كرسي.

- أنت تعرف، أليس كذلك؟ تعرف ما فعلوه؟

- نعم، سيدي النقيب. الجميع يعرفون.

مسح النقيب «دوغورس» وجهه بيده. استعاد هدوءه.

- ليس هكذا، يا «مورو»، قال بحزن. لا، ليس هكذا نقوم بالحرب. لسنا نحن.

- هذه الحرب قذارة، يا سيدي النقيب، أجاب «مورو» بطيبة. أنت تعرف ذلك مثلي.

- يجب تصديق أني لم أكن أعرف.

قدّم له رئيس الرقباء كأساً من الماء رفضه بإشارة منه.

- فليجهّزوا لي سيّارة.

* * *

أوصله السائق أمام كنيسة نوتردام-إفريقيا. طوال الرحلة تخيل طراوة الكنيسة، رائحة البخور والرطوبة تتخلّل خشب كرسي الاعتراف، والحضور الدقيق للكاهن من الجهة الأخرى للحاجز. لكنه ظلّ واقفا على درجات الساحة وقبّعته في يده. شاهد المسيح في الصليب خلف الهيكل، ولوحات النذور. سلّمت عليه بعض السيدات العجائز بإشارة من الرأس. لم يستطع التقدّم خطوة واحدة. كان يشعر أنه إذا تقدّم فإن يدا خفيّة ستطرده، وأن خبز القربان سيحرقه. الإله لا يريده. أعاد قبّعته على رأسه وتقدّم في الساحة. كانت غيمة خفيفة

تحلّق فوق البحر. سمع الأصوات المزعجة للأمواج التي تتكسّر على أسفل الهضاب في «سانت أوجين». كلّ ما تجاهل إتمامه لم يعد قادرا على فعله بتاتاً الآن. وبسبب ذلك شعر بحزن شديد. من بعيد، في القصبة المحاصرة، كان المؤذّن يدعو إلى صلاة الجمعة، عندما تنفتح الجنان الواسعة أمام أرواح الشهداء. وها هو الحظّ كلّه الذي تحدّث عنه «طاهر» الذي كان يعلم أنّ عليه الموت. عندها فقط فهم النقيب «دوغورس» ذلك. كان متألّماً من التفكير، رغم معرفته أنّ «طاهرا» لن يعود تجاهه كي يبتسم له للمرّة الأخيرة. لكن لماذا قد يبتسم للرجل الذي سلّمه لجلاّديه؟

*(لا أعرف، يا ربّي، لا أعرف)*

- لنعد إلى «البيار».

السيّارة تنطلق في الشوارع المشمسة وكان يرى نفسه في الليلة السابقة، جالسا بجانب «طاهر»، لكنه لم يكن عاجزا عن الحركة هذه المرّة. قام، دون أن يتكلّم. خلّصه من وثاقه وأخذه من ذراعه. قاده في متاهة الممرّات الصامتة حتّى وصلا إلى الباب المفتوح على الليل الذي يضيؤه هلال صغير. دفع «طاهر» برفق صوب نور القمر قبل أن يعيد غلق الباب كي يتمتّع بالسلام الذي وجده. كان يستطيع فعل ذلك، لا يزال هناك بضع ساعات. يستطيع ذلك. هكذا توجّب أن يحلم «بيلاطوس»، والي يهودا، قبل أن تمزّق عاصفة الصلب سماء القدس.

*(وأنا نفسي، أرغب في الكذب وأشعر فيه بالرضا. لا، آه، لا، ما كان ينبغي لي فعله، حتّى لو عرفت. ما كان ينبغي لي فعله. لدي السلطة. والسلطة تدوس علي، ما بيدي حيلة. لا أملك الحقّ في طلب الحساب. ليس لدي الحقّ حتّى في الندم)*

في مكتبه ينظر إلى صورة «طاهر» على المخطّط الهيكلي. يريد أن

يتمتم بكلمات اعتذار غير أنّ فجورها أثار اضطرابه وبقيت شفتاه صامتتين. فات الأوان. كلّ ما يقال قد قيل. أخذ بريده. لا يوجد سوى رسالة واحدة، هذا الصباح. من «جان ماري». كان يعرف أنه من المستحيل عليه فتحها. مزّقها وألقى بقطعها في سلّة المهملات. لا كلام حنان يمكن تحمّله. مرّت سحابة ذهبية في السماء. أخذ يتتبّعها بعينيه من النافذة. لديه الإحساس أن ما مزّقه منذ قليل هو كلّ الذكريات السعيدة، كما لو أنه أصبح رجلا ممنوعة عليه، بعد الآن، حتّى الذكريات السعيدة. انهار تحت وطأة حنين مروّعة. استقامت خلجان «بيانا» أمام الشمس المغادرة، و«كلودي» تلعب مع «جاك» على شرفة الفندق، لكنّ مسحة صفراء ومرضيّة أزالت لون السماء حتّى من ذاكرته، ولن يجد مطلقاً الضوء الشفّاف.

*(أنا ضباب، تعفّن معسول يتسرّب إلى كلّ مكان. أنا الذي أفسدتُ ألوان الخلق. أقطّر للعالم سمومي والجمال يحيد عنّي)*

كان يحبّ الجمال كثيراً، حبّا مليئا بالورع. الجمال الداكن للكلمات الشعائرية، الجمال البرّاق للرياضيات الذي كان يضيء سنوات دراسته. بعد أسبوعين من الدراسة، رجاه «شارل ليزيو» أن يسير معه بضع خطوات، بعد الخروج من الثانوية. قال له، وهما بمحاذاة ضفاف نهر «الدوب» ويبدو مستاء من هذا الإقرار، أنه: موهوب بشكل استثنائي. وكان كذلك. لم يكن النجاح يتطلّب منه أيّ جهد. وكأنّه طوّر حاسة خاصّة، حدسا هندسيّا لا يخطئ بتاتاً، حُرمت منه الغالبية الساحقة من زملائه، وكان يتيح له مباشرة أن يرى بوضوح ما لا يستطيع الآخرون رؤيته إلاّ بعد عملية استدلال شاقّة. لم تكن البراهين تهدف إلاّ لتأكيد ما استشعره مسبقاً. وكان حريصاً على أن يظهرها بشكل فائق الأناقة، لا تشوبه شائبة، موجز، وجلي لأنه كان

يعلم أنه يجب الكشف عن الحقيقة والجمال معاً وأنّه لا قيمة لأحدهما دون الآخر. الرياضيون يفتحون الباب على عالم سرمدي، أصيل، ولا نهائي، دون الحاجة لانتظار يوم القيامة. كان يمتلك مفتاح هذا العالم الذي يقرّبه من الإله ويعتقد أن حياة مضت في تفحّصه ستكون حياة كاملة. كلّيات الهندسة الكبرى لم تكن تستهويه، وهذا ما كان يُرضي «ليزيو» الذي كان يتقاسم معه ازدراء كلّ التطبيقات الوضيعة، ويخبره بثقة، وهو يسير بجواره، أنه سيراه داخل دار المعلّمين العليا. لكنّ الأزلية ليست في معزل عن آلام العالم. استمرّت الحرب، وكان لدى «أندريه دوغورس» إحساس تزيد سيطرته بأن السعادة الكاملة العمياء كانت خطيئة. هناك أمر مّا سيّئ انتشر، وهذا الشيء لم يكتف بإلغاء الحياة، وإنما توجّب عليه أيضاً أن يجعلها مخزية وقذرة. قريباً، لا طريق سيظهر مجدّداً إلى الجمال المطلق وستذوب روح الرجال عميقاً إلى الحدّ الذي سيجعلهم غير قادرين حتّى على الندم.

خلال أسابيع، كان يتحدّث عن رغبته في أن يكون مفيدا «لليزيو» الذي كان دائماً، يجعل الحوار حول أعمال «كانتور» أو فضاءات «هيلبيرت»، إلى أن أتى اليوم الذي أخبره فيه أنّه يستطيع أن يعطيه الفرصة ليكون ذا فائدة. كان إنزال الحلفاء قد تمّ للتوّ في النورماندي، وكان «ليزيو» يعتقد، دون شكّ، أن تلميذه سيكون قريباً بمعزل عن الانتقامات. ولاحقاً، في أقلّ من شهر، وقبل أن يُحطّم باب الشقّة التي كانوا على موعد فيها، تجمّد قلب «أندريه» بسبب الطرق السريع للخطوات في الدرج. وبعد عودته من «بوشنوالد»، فإن حياة مكرّسة للرياضيات فقط لم تعد ممكنة. لم يشعر يوماً أنّه ذو مزاج قتالي. هذا المجال لم يجذبه ولم يعجب يوماً بالمغامرات لكنّ المجال العسكري فرض نفسه عليه في لحظة ضرورة مطلقة. كان ينبغي حفظ احتماليّة

الجمال، هذا كلّ ما يهمّ. كان عليه أن يبدّل الاتّجاه وأن يتخلّى عن إمتاع نفسه.

*(هذا هو ما فعلته بحياتي)*

اليوم هو الذي يصعد سلالم الدرج جرياً وقرع خطواته الشرّيرة يُديم الهلع والموت اللذين أراد مقاومتهما. أدخل إلى العالم كلّ ما كان يريد طرده. ولا يوجد هدف من الأهداف التي جرى خلفها، يوما، قادر على تبرئته. من المستحيل فهم ما جرى. خسر كلّ شيء. وعلاقته الوحيدة مع الرياضيّات اُختزلت في حسابات إحصائيّة كريهه تغطّي علاقاته الخاصّة. أفسد كلّ ما مُنح له. أعيى رحمة الإله، وروحه تكمن في مكان مّا. بعيدا وراءه.

* * *

كانت حالة «روبير كليمان» مفزعة. من الواضح أنه لم يذق طعم النوم طوال الليل. عيناه تلمعان في هالتين سوداوين، وعلى طرف فمه ظهرت بثرة، تحت شاربه تماماً. يتنفّس بقوّة. تفاجأ النقيب «دوغورس» أن ليلة واحدة فقط جعلته في هذه الحالة. يعرف أنه سيتحدّث قريباً. قرفص بالقرب منه.

– كما ترى، الليالي صعبة، قال وصوته لم يتغيّر عن الليلة السابقة، كانت نبرته صادقة ومتأدّبة، كأنّ شيئاً لم يحدث. ما رأيك أن نضع حدّا لكلّ هذا؟

– ليس لدي ما أقوله، أجاب «كليمان». كم مرّة سأكرّرها عليك؟

– أنا لا أعلم! ردّ النقيب «دوغورس» متعجّباً. تستطيع أن تكرّر ذلك لي ما شئت من المرّات. أعلم أن ذلك غير صائب، هذا كلّ ما يهمّني.

استدار نحو «مورو» و«فيبفاي».

- يبدو أن صديقنا ليس على ما يرام، أليس كذلك؟ في النهاية، من الغباء التشبّث بالرأي هكذا، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، سيدي النقيب، هذا غباء مطلق.

عبّر الحركيّون عن موافقتهم بحركة مفهومة.

- هل تسمع سيّد «كليمان»؟ يمكن القول، الجميع متّفق على تصرّفك. ألا تفهم أنك ستملّ قبلنا؟

أرخى «كليمان» عينيه للحظة قبل أن يشير إلى النقيب «دوغورس» الذي انحنى صوبه. بصق «كليمان» على وجهه مرّة أخرى.

- لا، لن أملّ. طالما لا أزال أستطيع البصق على شدق فاشيّ فاسد مثلك.

أخطأ النقيب «دوغورس». كلّ ما شعر به من تعب ويأس لم يكن غير كراهية. كراهية مهولة زادتها الليلة السابقة، بوحدتها وأرقها، هولاً. مسح وجهه بمنديل وذهب يأخذ كأسا من الماء. قلبه يخفق بأقصى سرعة. كلمة «فاشيّ» لا تحتمل. عاد يفكّر في «طاهر». يتخيّل جثّته الباردة، وتكشيرة الأسنان الشنيعة بسبب الشنق. و«كليمان» هنا، حيّ وينظر إليه بكبرياء. «كليمان» الغاضب من الآلام التي لا تخصّه ويتصوّر أن خيانته ستجعله بطلاً. ذهنيّة «كليمان» أحاديّة الجانب. قلعة مذهلة محصّنة ومحميّة بجدران من اليقين. لن يتكلّم.

*(ابن العاهرة)*

قفز الجنود من صوت الكأس المتكسّرة على الأرض. ألقى بها النقيب «دوغورس» على الحائط دون كلمة واحدة. تقدّم تجاه «كليمان» وأمسكه من عنقه قبل أن يسارعه بضربة رأس. أفلته النقيب من

كرسيّه ورماه على عرض الطاولة. ضرب رأسه على الخشب السميك أكثر من مرّة. بدأ «كليمان» يئن، والدم يسيل من أنفه المكسور. قلع النقيب أزرار سرواله الذي أخذ ينزلق على ساقيه. حاول «كليمان» الدفاع عن نفسه، بدأ يرفس بقوّة ففكّ خاصرته من على الطاولة. لكن النقيب غرس كوعه في بطنه وضغط بكلّ وزنه، فأخذ «كليمان» يتقيّأ. ثبّت أحد الحركيّين كتفيه على الطاولة، في حين كان النقيب «دوغورس» ينتهي من نزع بنطاله ويمزّق سرواله الداخلي. ثمّ مرّر يديه تحت ركبتي «كليمان» وثنى ساقيه على صدره. كان في وضع رضيع توضع له حفّاظة.

– سكّينك يا «فيبفاي». أمسكوا ساقيه.

أمسك بيد واحدة أعضاء «كليمان» التناسلية وطواها على بطنه، وأخذ يُدخل ببطء، الحدّ المصقول للسكّين في شرجه. أطلق «كليمان» صرخة حادّة مقطوعة. أدخل النقيب النصل بمقدار نصف سنتيمتر، إلى أن سال خيط دم رفيع وحارّ بين العجزين الأبيضين. صاح «كليمان».

– لم تصب بشيء، هل تسمع؟ قال النقيب بصوت أجشّ له صفير.
لم تصب بشيء، أيّها القذر. يجب أن ترخي عضلاتك وإلاّ فإنّك
ستؤذي نفسك. هل تستطيع أن تسترخي، في رأيك؟ استرخ!

في مكان مّا، هُدّمت عوائق غير مرئيّة بسيل جارف وحشيّ أتى مندفعا من هوّة سحيقة ليس لها قرار. السيل يجري. هو السيّد لا شيء يستطيع إيقافه. يحمل الألم، والأوجاع والشكوك. ترك النقيب نفسه تنساب بلذّة مع القوّة التي تخلّلته، وأطلقها. هبط غطاء على عينيه. يشعر أن قلبه يخفق بشدّة في كلّ جزء من جسده يترصّد فرائسه، على طرفي شفتيه، في بطنه، على طرف أصابعه، في راحة

يده الممسكة بالسكّين المهتزّة. مال على «كليمان» كي يشمّ الرائحة المسكرة والعذبة لخوفه. اختفت الكراهية. وبضربة واحدة سرق منه النقيب «دوغورس» كلّ الكراهية التي كانت تحرّكه وتجعله واقفا. والآن، بصقها في وجهه ونظر إليه ينهار بمتعة لا توصف.

- استرخ، كرّرها بصوت غير قويّ، استرخ.

حاول «كليمان» السيطرة على تنفّسه والانقباضات غير المقصودة لعضلاته. أغمض عينيه وهو يتأوّه، وأعضاؤه ترتجف.

- هنا، هنا، هنا، قال النقيب «دوغورس» وكأنه يهدهد طفلا.

«كليمان» عاجز عن الحركة. سالت دموع بين جفونه وشهق بقوّة.

- لا أعلم في أيّ حالة ستنتهي من هذا الاستجواب. الأمر يعود إليك. سأطرح عليك بعض الأسئلة. ليس كثيراً. إذا لم تجب أو أجبت بشيء لا يعجبني سأدفع السكّين قليلا، تفهم؟ سأدخلها هكذا.

أدخل النصل لنصف سنتيمتر إضافيّ. فتح «كليمان» عينيه كمجنون وأخذ يطلق صرخات حادّة جدّا. انقبض جسده كله وهو لا يزال يصرخ بقوّة أكبر. ضغط الحركي على كتفيه وتمدّد «فيبفاي» تقريبا على الطاولة بين ساقيه.

- هنا، هنا، هنا...

هزّة لطيفة. كانت عينا «فيبفاي» نصف مغلقتين، وطرف لسانه الوردي مقبوضا بين شفتيه.

- أريدك أن تفهم أني لن أمزح مجدّدا، قال النقيب «دوغورس» عندما استعاد «كليمان» السيطرة على نفسه. سنبدأ.

قدّم «كليمان» الأسماء. جزائريّان اثنان وفرنسيّان من أنصار

الشيوعيّة: أحدهما صاحب مرأب والآخر معلّم. سحب النقيب «دوغورس» السكّين وقرّبها من عيني «كليمان».

- سنتيمتر واحد، انظر. بالكاد سنتيمتر واحد. أنت فعلاً لا تساوي شيئا. تعرف ذلك. لا شيء البتّة. كان عليك أن تستمع إليّ. من السهل وضع الأشياء في مكانها.

استدار صوب «مورو».

- «مورو»، أحضر لي من ذكرهم. واجعلهم يتكلّمون. الفرنسيّون كالآخرين. بل قبل الآخرين، الأنذال. هل تفهمني؟ لا يهمّني الإشهار. ولا تنس أن تخبرهم من الذي وشى بهم.

زفر «كليمان». نظر إليه النقيب «دوغورس» باشمئزاز. ولاحظ في عيني «فيبفاي» و«مورو» والحركيّين، الشعور نفسه بالاشمئزاز ووميض تواطؤ مريبا. يوجد على الطاولة بقايا لعاب ودم. استدار «كليمان» على جنبه ورأسه مدفون بين ذراعيه. وعضوه التناسلي الهزيل مائل ببلاهة نحو الطاولة تحت شعر عانته. كانت لديه شامة بنّية بجانب السُرّة. والساقان الهزيلتان، اللتان يغطّيهما الزغب الأصهب، ترتجفان بتشنّج. قدماه بيضاوان ورقيقتان كأنهما قدما فتاة شابّة، غير أن أظافره طويلة جدّا وغير متناسقة. وكان ظفر أحد إبهاميه أكمد، أسود تقريباً.

مرّ السيل الجارف. لم يتبقّ سوى خراب منظر مؤسف، ووسط هذا الخراب يوجد جسد «كليمان». هذا جسد الضحيّة الغريب والنتن. شعر النقيب «دوغورس» بالغثيان ولكنّه قال رغم ذلك:

- علّمهم كيف يَحيَون، يا «مورو».

* * *

أكمل المخطّط الهيكلي. تشاور مع العقيد عبر الهاتف ووافق بكلّ احترام على جميع أكاذيبه. غادرته كلّ رغبة في التمرّد. خضع لخزيه، ولم يعد بيده سوى شيء واحد: الانتهاء سريعا من المهمّة التي تتطلّب بقاءه هنا. لا يعرف ما الذي ينتظره لاحقا لكنّ ذلك لا يهمّ. تقدّم في الممرّ، عبر من قاعة استجواب إلى أخرى، وبالكاد وقعت عيناه على العربيّين، وصاحب المرأب، والمعلّم. تعابيرهم لا وزن لها. ولا تعني له شيئا. هذه الأوجه أقنعة لمهزلة سيمزّقها الوجع إلى أشلاء. ارتفع أنين طويل في مكان مّا من البناية.

- «طاهر»، يا «طاهر»!

صوت آخر يجيب:

- «طاهر»، يا «طاهر»! الله يرحمك!

صوت آخر يصرخ بدوره:

- اللهم ارحم الشهداء!

- ماذا يقولون؟ سأل النقيب «دوغورس»

- يعرفون ما حصل «للحاج ناصر»، أجاب أحد الحركيّين. يقولون إنّ الله تقبّل روحه.

- كيف يعرفون؟

باعد «مورو» يديه في حركة عجز.

أخرسهم. أمر النقيب «دوغورس». لا أريد أن أسمعهم مجدّداً.

انعزل لتدخين سيجارة. كان هناك أوّلا إزعاج الأبواب التي تنفتح بقوّة، ثمّ صرخات ثمّ صمت. وقت ما بعد الظهيرة لا يريد أن ينتهي. دفعت الرياح أمامه سماء شتويّة مليئة بالمطر. والشمس

تجفّف الأرصفة المبلّلة. الرتابه ذاتها، والفراغ ذاته. ما هو أساسي انكشف، ولن يحدث أيّ شيء جديد. جلس على رجليه ويديه يجمع قصاصات رسالة «جان ماري» التي مزّقها. يحاول أن يعيد إلصاقها بصبر. عندما انتهى من ذلك كانت الشمس قد غربت. لا يعرف هل الأمر يتعلّق بتمضية الوقت فقط، أو أنّه لا يزال غير قادر على الخضوع للعزلة. الكلمات التي تشقيه هي التي تساعده على الشعور بالحياة.

«طفلي، حبيبي، أندريه. لا جديد اليوم. لا أريد التحدّث معك عن الأطفال والأشياء الصغيرة لحياتنا بعيدا عنك. حلّ اللّيل وأنت بعيد جداً. لو لم أعرفك لاعتقدت أنّك لم تعد تحبّنا. رسائلك قصيرة وباردة جداً. لكني أعرفك. أعرف نقاء روحك، وأمانتك. ولا أستطيع أن أصدّق. أعرف أنك تعاني ولا تريد الكلام عن ألمك».

*(لكن لم يعد لدي روح)*

تمزيقه للرسالة جعل بداية الجملة الآتية صعبة القراءة:

«... لكل ما يشغل بالك. ولذلك سأنتظر الوقت اللازم كي تشاطر ألمك معي. إنّي عجوز، تقريباً، لكن لا يوجد شيء لا يمكن سماعه منك. هذه من حسنات الزواج من امرأة كبيرة في السنّ! إذا كنت تريد أن تواصل حمل وزن ثقيل بمفردك، فلك ذلك، أندريه، إذا كان ذلك ضروريّا. لكن لا تنس أنّي هنا كي أحمل نصيبي منه وأنّك تستطيع التحدّث معي متى شئت. المسافة تجعل الأشياء صعبة، يا صغيري، لكني على ثقة أنك عندما تكون بقربي سيصبح من السهل عليك التحدّث معي. بل، وأعلم أنك ستكون في حاجة إلى ذلك. في الانتظار، أرجوك قل لي على الأقل إنّي لست مخطئة. أنا أعلم أني لست مخطئة لكني أريدك أن تكتبه لي، دون أي تحديد إذا أردت. لكن اكتبه لأنّي أمضي ليالي صعبة. آه، أنا لا أعاتبك على شيء، أندريه،

إني أطلب منك معروفا. وأنا سأتابع التحدّث معك عن الصيد والربيع الرائع الذي نعيشه هنا. سأحدّثك عن كلّ التفاصيل. عن رائحة المكان المزهر، وألعاب الأطفال، ونزواتهم الدفينة وحسناتهم، ونزهاتنا العائلية. سأتابع كي تعرف أنّنا جميعا هنا، وأنّ في قلوبنا مكانا تسكنه أنت للأبد، وأنّ لا شيء تغيّر. لن أطلب منك شيئا آخر، وسأنتظر إلى أن تصبح جاهزاً...»

- سيدي النقيب، يجب أن تأتي حالاً.

* * *

كان «روبير كليمان» ممدّداً على جنبه، على الأرض، في زنزانته. أسفل جسده العاري ملفوف بغطاء عسكري. وكانت يداه مشدودتين على صدره. وكانتا سوداوين من الدم الجافّ. كان يوجد دماء، أيضاً، على البلاط. وحوله مستنقع واسع يمتدّ تجاه الحائط ويختفي تحت الفراش. كانت إحدى قدميه خارج الغطاء، وبياضه اللبني يظهر كبقعة ضوء في الظلام. بلّل رئيس الرقباء «مورو» إسفنجة في دلو الماء، وأخذ ينظّف بلطف ذراع «كليمان» التي عليها آثار جروح غائرة وغير منتظمة تمزّق الجلد الشاحب. جلس النقيب «دوغورس» بالقرب من «مورو» وأخذ من يده الإسفنجة. عصرها كي يخرج الدماء منها ونظّفها حتى أصبح الماء الذي يخرج منها شفّافا ونقيّا بالكامل. قلب «كليمان» على ظهره ورفع بحذر رأسه الذي ألصقه الدم بأرضيّة الزنزانة. مرّر الإسفنجة على وجهه، وداخل شعره، وعلى عينيه اللتين لا تريدان أن تغلقا. البشرة لا تزال موجودة مكانها تحت شاربه السخيف. وشفتاه المشدودتان تميلان إلى اللون الأزرق.

- كيف فعل هذا بنفسه؟ سأل النقيب «دوغورس».

- لا أعرف شيئا عن ذلك، سيدي النقيب، أجاب «مورو». لا أفهم.

وجد أحد الجنود، بالقرب من الجسد، قطعة سوداء مقوّسة من البلاستيك ملتصقة بالدم. طويلة بمقدار عشرة سنتيمترات ومشحوذة دون إتقان. أعطاها للنقيب «دوغورس». احتاج «كليمان» لفترة طويلة كي يفركها بجدران الزنزانة. بمعنى مّا، كان عزمه ثابتا. تركّز كله ببساطة على هدف آخر.

- أين وجد هذا؟ وما هذا؟

- لا أعرف شيئاً، سيدي النقيب، كرّر «مورو».

- كأنها قطعة من رفّ المرحاض، سيدي النقيب، لاحظ أحد الجنود. هل تريد أن أتثبّت من ذلك؟

هزّ النقيب رأسه بصمت.

- لا أعلم متى أخطأنا، سيدي النقيب، قال «مورو» بصوت مهموم.

- أنا لست غاضبا منك، «مورو»، قال النقيب. كلّنا أخطأنا، كما تقول، ولا أعرف إذا كان من المهمّ معرفة متى.

حاول النقيب «دوغورس» مجدّدا إغلاق عيني «كليمان» دون فائدة. استقام ببطء. نظر إلى حذائه الممتلئ بالدماء وهو يلتصق بالأرضية مصدرا صوت شفّاطة.

- نظّفوا الزنزانة، قال. وانتهوا من غسل هذا الصبي.

نظر مرّة أخرى إلى «كليمان»، البياض اللبني لبشرته، عينيه المفتوحتين اللتين لم تعودا تريان شيئاً.

- الحق بي، يا«مورو».

في مكتبه، وضع ملفّا على رسالة «جان ماري» الممزّقة.

- صباح هذا اليوم تمّ إطلاق سراح «روبير كليمان» بعد سماع أقواله. قال «لمورو» وهو ينطق كلّ كلمة بعناية. هذه الليلة، تأخذ

جثّته وتخفيها. لا أريد أن أعرف كيف، أريد فقط الاطمئنان أن لا أحد سيجدها إطلاقاً. هل فهمتني؟

- نعم، سيدي النقيب، وافق «مورو». لكن هل تعلم، تابع بعد لحظة، لا أحد سيصدّق أنّنا أطلقنا سراحه وأنّه تبخّر هكذا.

رفع النقيب كتفيه.

- ما أهمّية أن يصدّق أحد أو لا، يا «مورو»؟ ما أهمّية ذلك؟

خفض النقيب «دوغورس» رأسه ودلّك صدغه بأطراف أصابعه.

- والآن اتركني وحدي، إذا سمحت.

* * *

في كلّ إنسان تستمرّ ذاكرة الإنسانية جمعاء. وشساعة كلّ ما ينبغي معرفته، يعرفه، سلفاً، كلّ واحد. ولهذا لن يوجد أيّ اعتذار. ذهب النقيب «دوغورس» يبحث عن كتابه المقدّس في غرفته. مرّر يده بلطف على الغطاء المستهلك. توجد جملة مرعبة، في مكان مّا من إنجيل يوحنّا، يحتاج أن يقرأها. قرأ: «لكن يسوع من جهته لا يثق بهم، لأنه يعرفهم جميعا. لم يكن في حاجة لشهادة عن الإنسان، لأنه كان يعلم ما يوجد داخل الإنسان». أخذ ورقة رسائل ونظر إلى الورقة البيضاء دون أن يكتب شيئاً.

*(صوت مّا أعيد لي، يا جان ماري، لكن ما الذي أستطيع فعله به؟ منذ زمن طويل وأنا فريسة للكذب. أعرف ماذا يوجد في الإنسان، رأيته مرّات عديدة ولم أبح به مطلقاً. هكذا استمررت في العيش. إلى عائلات رفاقي، الذين ماتوا محتجزين بجانبي، لم أكتب سوى نسيج من الأكاذيب. كنت أتحدّث عن الشجاعة، عن التضحية، عن الفخر. كان ينبغي لي أن أقول لهم: مات زوجك بسببي، مات*

*أخوك، أو ابنك، بسببي. لم أتمكّن من إنقاذهم. لم أرد ذلك. ماتوا لأنهم شاهدوا رجالا رضوا بالعيش كالحشرات، رجالا مثلي. ماتوا لأنهم لم يتمكنوا من اتّخاذ قرار نهائي. ولأنهم، برؤيتنا أنا ومن يشبهني، سألوا أنفسهم: ما الداعي للعيش؟ هناك حيث كنّا، يا جان ماري، لا أحد يستطيع أن يطرح على نفسه هذا السؤال والعيش. بالطبع، جان ماري، هناك شخص يعيش محميّا في قلبك العاشق حيث لا شيء يمكن أن يصيبه، وكذلك في قلوب الأطفال. لكن هذا الشخص ليس أنا. أنا ليس لي مستقرّ، ولا حتّى في جهنّم. ذراعاي الممدودتان صوبكم يجب أن تسقطا في الرماد. صفحات الكتاب المقدّس يجب أن تحرق عيني. لو كنت تستطيعين رؤية ما أنا عليه ستغطّين وجهك وستهرب كلودي منّي هلعاً. هكذا الأمر. شيء مّا ينبثق من الإنسان، شيء مّا شنيع، لا إنساني. ومع ذلك فهو جوهر الإنسان، حقيقته العميقة. ما عدا ذلك أكذوبة. السماء ليست زرقاء، واليوم أيضاً قتلت طفلاً، وقتلت أخي. الحبّ غير المستحقّ يثقل كاهلي على نحو قاتل. كيف أستطيع قول ذلك لك؟ صوت أعيد لي من أجل الصمت ومن أجل الليل. صوت أعيد لي من أجل الأموات الذين لن يتمكّنوا من سماعه مجدّداً)*

- سيدي رجال «أندرياني» هنا.

- قل «لمورو» أن يتولّى تسليمهم السجناء. لدي شيء أفعله. أعطه القائمة.

من النافذة ينظر إلى الهلال المضيء في السماء المتلألئة بالنجوم. لديه شعور بإكمال شعيرة لا تنتمي إلى زمن. في القدس عاصفة الصلب مرّت، وكان والي يهودا على شرفة قصره يرفع صوب هذا القمر ذاته، عينيه المملوئتين حنينا. أغلق الحجر الثقيل للقبور على

جسد المنكّل بهم، وما عاد صمت الليل يخيفهم.

*(كم وجهٍ لديه، يا جان ماري؟ هل هي متعته في ألاّ يتمّ التعرّف عليه كي يضلّلنا ويحيّدنا عنه ونحن نعتقد أنا نبحث عنه؟ هل هو سيّء؟ يفرح برؤيتنا نتساقط؟ هل هذه طريقته في الثواب على ضعفنا وحبّنا؟ هل جسده بشع؟ لا جلالة تخرج منه. إنه لا يشرق. جروحه فظيعة ولكنها لا توحي بالشفقة. يظهر كمجرم أسقطته العدالة. لا أحد يبكي عليه. من لا يستطيع منع دموع عينيه وهو يراه نجا، لكن لا أحد بكى. أترين، أنا لا أبكي. المنطق الشرس يحصّن ذهني، وما عاد يفيدني في شيء. إنّه يتقلب كالقفاز، وكلّ الأسباب التي لا تحصى، التي جعلتني أقبل عذابه وأضربه، فقدت تماسكها وكأنها الضباب. وضربته، جان ماري، لأكثر من مرّة. ولم أتعرّف عليه. السلطة والمنطق سلّحا يدي، وأعطياها قوّتها. لكن هذه اليد سقطت، غير قادرة وميتة. ولم أعد أستطيع منعها من ألاّ ترتفع مطلقاً. ولكن هو، يا جان ماري، القادر على كلّ شيء؟ ألا يستطيع أن يمنعها من ألاّ ترتفع مجدّداً أبداً؟ ألا يستطيع جعلي أرفض ذهني لا رفضه هو؟ لأنني الآن تعلّمت وأعرف. لو سنحت الفرصة لي لمصادفته من جديد، سأتعرّف عليه مهما كان وجهه. سأتعرّف عليه وسأعرف ما أفعل. لأنني تعلّمت أيضاً أن الشرّ ليس عكس الخير: حدود الخير والشرّ غير واضحة. إنها تتداخل وتصبح غير قابلة للتمييز داخل الضباب الرماديّ الكئيب الذي يغطّي كلّ شيء وهذا هو: الشر. عرفت أن لبّ المنطق المفتقد لقوّة الحياة لا يستطيع فعل شيء دون نجدة الروح. يستطيع فقط أن يهيم، دون نهاية، في الضباب الداكن بين الخير والشر. وأنا، يا جان ماري، تركت روحي في مكان مّا ورائي. لا أذكر متى ولا أين.*

*ما الفائدة من المعرفة إذا لم يُسمح لي بالرجوع إلى الخلف؟ وهل أستطيع غير متابعة التقدّم بعيدا، ودون هوادة، في الطريق الذي يأخذني عنه وعنكم؟ أريد أن يعيدني إلى ساعة الشروق في ذلك اليوم الذي محي من ذاكرتي، وهو الوحيد الذي يعرف. الحقيقة، لو أن الغضب لا يزال يعني له شيئا فسأغضب منه غضبا شديداً. لماذا تركني، هكذا، أدمّر كلّ الحبّ الذي كنت أحمله داخلي؟ لماذا جعلني أصبح غير أهل لحبّكم؟ وهو، لا يتفضّل عليّ حتّى بغضبه. جان ماري، إني حيوان يئنّ، بارد للحدّ الذي ما عدت أشعر فيه بالألم الذي يجعلني أئن. ورغم معرفتي بأني فقدت، منذ زمن بعيد، الحقّ في التضرّع إليه، إلاّ أني أصلّي له. أريد منه فقط أن يسمح لي بالعودة، للحظة فقط، حيث تركت روحي.)*

لكن كل شيء يبتعد سريعا. وجه «طاهر» المبتسم تحت النسمة اللطيفة التي تحرّك خصلات شعره الأسود في «تاغيت» أو «تيميمون»، وصدى ضحكات «كلودي» على شاطئ «بيانا». رجع النقيب «دوغورس» للجلوس إلى مكتبه. يكتب جملة وحيدة طويلة. خربشة غير مقروءة وضع فيها كلّ حبّه.

آه، لا، سيدي النقيب، لن أنساك، وأنت كذلك لن تنساني. أعرف ذلك. لا يمكن أن تنساني لأني قرأت في مكان مّا، أذكر ذلك تماماً، أنّ علينا، وللأبد، تشاطر المصير مع أولئك الذين أحبّونا. والحبّ الذي حملته لك هو، ربّما، أكثر صفاء ووفاء من الحبّ الذي أحاطك به والداك وزوجتك وأطفالك وكلّ الذين اعتقدوا أنّهم أحبّوك. احتقارك لي لم يعد مهماً، كاحتقاري لك، سيدي النقيب. بل إنّه سلطة في مواجهة قوّة هذا الحبّ الذي لم أوفّق البتّة في اقتلاعه من قلبي. إنّه متأصّل كعشبة سيّئة مليئة بالحياة. وأعرف، الآن، أن لا شيء سيمحوه.

لا تستطيع معرفة كم هو سهل عليّ لو أني كنت، ببساطة، عدوّك بدلا من تحمّل طغيان الحبّ الذي يربطني بك. أفهم أنك ماكنت تريده، وأنه يرعبك، لكن تذكّر، سيدي النقيب، أني لم أختره أنا أيضا. وإذا لم يزل لديك ذرّة من شرف، فعليك الإقرار أنه، بخلافي، لا أحد أحبّ الرجل الذي أنت عليه حقيقة. أنت تعرف ذلك جيداً. لا زوجتك، ولا الطفل الذي ربّيته، ولا الفتاة التي أتيت بها إلى الدنيا دون اعتبار، يعرفونك. وأنا على ثقة أنك سألت نفسك ما الذي سيبقى من حبّهم لو كانوا يستطيعون، في ثانية، لمح الرجل الذي أنت عليه حقيقة، الرجل الذي أبدعت في إخفائه عنهم طوال هذه السنين خائفا بشكل مستمرّ من أن ينتهي الأمر بهم لاكتشافه. وأقسم، سيدي النقيب، أنك فضّلت الحياة في الخوف والصمت على أن تخاطر بمواجهة هشاشة حبّهم. لكن أنا أعرفك، سيدي النقيب. أعرف جبنك الذي لا يقاس. أعرف طعم المرارة التي تحرق فمك، وعاداتك السيّئة، وأكاذيبك. أعرف مدى ضعفك، عطشك الذي لا يروى للعقاب. أعرف ندمك لأني أخوك، تذكّر أنّ ولادتنا كانت على يدي المعركة ذاتها، تحت الأمطار الاستوائيّة ذاتها. ولم أتوقّف نهائياً عن محبّتك كأخ. آه، أعرف أحلامك الخاصّة، سيدي النقيب. أعرفها معرفة دقيقة إلى درجة أنه لدي الانطباع أنك، في بعض الليالي، تحلم بي. إلاّ إذا كنت أنا من انزلقت بجانبك، داخل الحلم الذي حُملنا فيه بعيدا جداً عن أرض طفولتنا ناكرة الجميل. هذه الأرض التي لم تكن أرضي ولا أرضك. مشينا نحن الاثنان طوال طريق صحراوي، بين "تاغيت" و"بشار"، تحت أنوار هلال أصفر معلّق كمصباح في سماء بلا نجوم. مشينا بين أغراض، نصفها تغطّيه الرمال، منثورة أرضاً على مدّ البصر حولنا. أحذية بكعوب مكسّرة، فساتين ممزّقة أزالت رياح الصحراء ألوانها

ونزعت منها تطريز خيوط الذهب، وطبلة مهترئة، وعود بلا أوتار، وعقود من المجوهرات المسودّة، وعلب حنّاء وكحل، ملابس داخلية من الساتان وأجزاء من آنية المائدة، وحليات جلب الحظّ. جهاز عروس كامل تحجّر ببطء في صمت ذاكرتي منذ تبدّدت تلك التي جمعته. إنها الأزليّة، سيدي النقيب. والرياح التي لا تزال تهب بقوّة، لم تعد تحرّك البقايا الشاحبة. تنظر من حولك لكنك لا تجد أحدا ممّن تبحث عنهم، لا طفلة صغيرة تلعب في الرمل ولا صبيّا صغيرا. وزوجتك لم تعد تنتظرك في أيّ مكان. والرجل الذي تمنّيت أن تلتقيه طوال حياتك لن يأتي صوبك. ستحاول الصراخ باسمه في الليل لكنك لم تعد تملك صوتاً، ولا أحد يستطيع سماعك. لا يوجد أحد غيري، سيدي النقيب. وبالقرب منّا، عند أسفل كثيب الرمل، جمل صغير ينادي بلا ملل والدته وهو يمدّ رقبته تجاه القمر لكنه لا يستطيع رؤيتنا لأن يدا ممتلئة رأفة أعمته من أجل ألاّ ترعب عيوننا الذئبية، اللامعة في الظلام، أحدا بعد ذلك. تحاول الهروب منّي، سيدي النقيب، إلاّ أن قوّة حبّي الدائم تكبّلني بك، ويتعذّر عليك الهرب. جريك غير المجدي لم يقدك إلى أيّ مكان أبداً، سيدي النقيب. وعبثاً جريت حتّى انقطع نفسك. أنا دائماً هناك، وكلّ فستان ممزّق، والجمل والطبلة، كلّ غريسة عشب، كلّ قطعة من المرجان والفضّة كأنها إحدى النقاط اللانهائيّة لدائرة غير معقولة، ترفض بشدّة، ودون طائل، الجري من محيطها، سيدي النقيب، لأنه مهما جريت فإنك لن تصل إلى "تاغيت". لن تعرف أبدا ما إذا كان ينتظرك أحد تحت ظلّ النخلة، عند سفح الجدار الترابي، كي يقول لك، في النهاية، وتحت أشعّة الشمس الساطعة، الكلمات التي لم أسمح له بأن يتلفّظ بها في ظلام القبو أثناء ليلة ربيعيّة، منذ أمد بعيد. عندما فهمتَ، جثوتَ على ركبتيك في غبار

الطريق الصحراوي الطويل ورفعت عينيك المتضرّعتين صوب القمر. في هذا الحلم، والذي هو حلمك أيضاً، سيدي النقيب، كانت اللحظة التي اقربت فيها منك من أجل ضمّك إلى قلبي كأخ. لم تعد تنبذني. تركت نفسك تأتي إليّ، تهتزّ من النحيب الصامت. وأنا سعيد جداً، سيدي النقيب، لأني فهمت أنّ حلمنا لن يحرّرنا أبداً. لن نترك بعضنا. وهذه هي اللحظة التي أنحني فيها، بلطف، صوبك كي أتمتم في إذنك: وصلنا إلى جهنّم، سيدي النقيب... وقد استجيب لك.

# ألفـ راء

| علامات في الرواية العالمية |

| سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي |

## الساعة الخامسة والعشرون

## المؤلِّف: قُسطنطين جيورجيو

## البلد: رومانيا

## ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَوِيّ، رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

**د. عبد الله إبراهيم**

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

**فائز كم نقش**

# ظلّ الريح
## (مقبرة الكتب المنسية)
## المؤلف: كارلوس زافون
## البلد: إسبانيا
## ترجمة: معاوية عبد المجيد

أيّ قدرة لهذا الروائي الماكر على التلاعب بهذا الحشد الغفير من الشخصيّات؟ أيّ براعة تجعله يحوّل كلّ عنصر مَهْما كان بسيطا إلى متعة خالصة؟ لأوّل مرّة يعبث بي عمل روائيّ بمثل هذا الشكل، وكلّما توقّعت النصّ سائرا في طريق وجدتني على الضفّة الأخرى، فيما الكاتب يرسل إليّ تحيّاته من بعيد وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة. لكأنّنا إزاء علبة باندورا، كلّ علبة تخفي علبة أخرى، ومع كلّ علبة تزداد شرور الكاتب وهو يتلاعب بقارئه دون رحمة، مُقدّما لكلّ صنف من القرّاء ما يحتاج إليه: حبكةً بوليسية للقارئ البسيط تجعله يلهث لمعرفة الأحداث، مسحةً رومانسية تجعل قارئا آخر متورّطا في دوّامة من قصص الحب، قطعةً من تاريخ الحرب الأهلية في إسبانيا للمؤرّخ، وحشدًا من الرموز لعلاقة الكتابة بمفاهيم اليُتم والوجود والحياة.. لن أكشف الحكاية فهي على المتعة العالية التي تمنحها للقارئ لا تشي ببراعة زافون السرديّة فحسب بل تضعنا وجها لوجه أمام حشد من الأسئلة والمفاهيم،

إنّنا قبالة عمل سرديّ عظيم، ولم يكن وزير خارجية ألمانيا الأسبق يوشكا فيشر يبالغ وهو يتحدّث عن كتاب في 521 صفحة، حين قال: «ستقرأ الرواية في جلسة واحدة، ولن تنام الليل وأنت تتعقّب ظلّ الريح. لن يسمح لك زافون بأن تترك الكتاب قبل أن تبلغ الجملة الأخيرة» ولعلّه كان يقصد: «قبل أن ترتشف الجملة الأخيرة»

**شوقي العنيزي**

# آخذك وأحملك بعيدا

## المؤلف: نيكولو أمانيتي
## البلد: إيطاليا
## ترجمة: معاوية عبد المجيد

«آكلو لحوم البشر» اسم جيل روائيّ جديد تزعّمه نيكولو أمانيتي، اسمٌ مُدوّ، جارح، محيّر ومربك، متوحّش وفضّاح، العالم مخز، هذه هي الحقيقة، ولحم البشر مأكول ورخيص وهو أقلّ الأشياء اعتبارا في عالم تهاوت جميع قيمه، اسم يقلق الرّاحة، يزيل القشرة ويكشف الوسخ المتلبّس باللحم والعظم، ولأنّه كذلك فإنّ أمّانيتي يستنبط أسلوبا خاصّا، لم نألفه من قبل لا في الرواية الإيطاليّة ولا الأوروبية، علامتُه الفارقة: «آخذك وأحملك بعيدا».

رواية طويلة تقرأ مرّة واحدة، لن تقدر على تركها قبل إكمالها، ستجد نفسك غارقا في التّفكير في حياتك قائلا «متى سأستفيق من هذه الخرافة؟»، حينما ستبدأ الإجابة يكون الكتاب قد تحوّل من كلام على الورق إلى طريق، ما حقيقتك؟ هل لديك القدرة على تغيير مسارات حياتك؟ هل يجب أن تكون على هامش الحياة، أم أحد أبطالها؟ أسئلة لم تطرح أبدا في أثر روائي بكلّ هذه القسوة والدويّ.

الآن أكملت القراءة، وليس أمامي إلاّ وضع قدميّ على أوّل الطّريق.

**نصر سامي**

# السنة المفقودة

## المؤلف: بيدرو ميرال
## البلد: الأرجنتين
## ترجمة: أشرف القرقني

«هي رواية صغيرة، ولكنها عبقرية، فيها تتكلّم رسوم سالفاتييرا من تلقاء ذاتها لتقول لنا: كان يا ما كان...»

**صالح علماني**

«إنها رواية الزهد اللاتيني، رواية الصمت وخيبة الأمل أيضا. سالفاتييرا الذي سيصاب بالخرس في طفولته، بعد سقوطه من على ظهر حصان، سيهتدي إلى لغة أخرى بعد أن فقد نعمة الكلمات، وسيقضي ستين سنة في رسم لوحة واحدة طولها أربعة كيلومترات. لم يكن يفكر في عرضها على المتاحف وتجّار الفن وهواة الأرقام القياسية، لم يلجأ إلى الإعلام، لم يكن معنيا على الإطلاق بمكبرات الصوت والصورة في عالم الفن. لقد كان سالفاتييرا منشغلا بالرسم فقط، بتلك اللوحة التي ظلت تتدفّق على طول السنين ولم يوقفها سوى الموت.»

**عبد الرحيم الخصّار**

«تكون في راحة من عقلك وبمجرد أن تتصفّح الكتاب يختلّ توازنك، وتمضي في نهر الحكاية مسحوبا باندفاع التيّار، بعيدا عن غرفتك، عن طاولتك وكرسّيك ومصباح مكتبك، وأنت تجذّف خلف الرّاوي باحثا عن لفافة الرسم الضائعة. تجتاز قرى أرجنتينية، تقابل صيّادين ومهرّبين، تمشي على طول أنهار موحلة وتركب عبّارة صدئة في جنح الظلام قبل أن تهتدي إلى أنّك كنتَ بصدد البحث عن قصيدة رسمها بيدرو ميرال وكتبتها عيناك على الطريق وأنت تقرأ».

**زياد عبد القادر**

# أسرار

## المؤلف: كنوت هامسُن
## البلد: النرويج
## ترجمة: أماني لازار

هل عاد دوستويفسكي مرة أخرى إلى الحياة ليكتب نصًّا أدبيًّا نُشر تحت اسم كنوت هامسُن؟ أم أن هناك بالفعل روائيًّا آخر يستطيع أن يصل إلى ذروة التحليل النفسي لشخوص أبطاله بقدر ما كان يفعل دوستويفسكي؟ لقد ذهب أحد الروائيين إلى حدود الإقرار بأن هامسُن تخطّى دوستويفسكي نفسه، قد لا أتفق معه بشكل كامل ولكن- بعد قراءة «أسرار»- يمكن أن أقول إنّ هامسُن وصل إلى مناطق مخيفة في النفس البشرية لم يصل إليها دوستويفسكي نفسه. لم أتخيل بأنّي سأقول هذا الكلام في يوم من الأيّام، ولكن هامسُن فعلها بجدارة، وكانت مفاجئة بالنسبة إليّ، مفاجأة لم أتخيّلها حقًّا.

في هذه الرواية لا يسرد كنوت هامسُن بل يضرب، وكأنّ ما يكُتب به النصَّ مطرقة وليس قلمًا. مطرقة تحطم وتبعثر. وهذا الضرب السردي مكتوب بلغة عذبة وشعرية للغاية.

يحفر هامسُن في أعماق شخصيّاته ولا يكفّ عن الحفر... من قال إنّ هناك عمقًا قد ينتهي؟ ففي النهاية لا وجود لغير هاوية سحيقة، هاوية لا قرار لها!

ممدوح عبد الله

# بوذا في العالم السفليّ

## المؤلّف: جولي أوتسوكا
## البلد: أمريكا-اليابان
## ترجمة: أبو بكر العيّادي

هي أوديسة من نوع خاص. إبحار إلى ديار بعيدة دونما أمل في العودة. ارتحال مجموعة فتيات معدمات من أرياف اليابان وقراه المنسية بحثا عن زوج يحفظ لهن عيشا غير الذي كن يعشنه في مزارع الأرز البائسة. بنات أغلبهن عذارى يحملن صور أزواج لا يعرفنهم، وألبسة تقليدية بسيطة، وأشياء أخرى حميمة يحفظنها بين دفوف كتب من نوع «مرحبا أيتها الآنسات اليابانيات !» أو «دليل المسافر إلى أمريكا» ويخبّئن بين الضلوع أسرارا لا يبحن بها لأحد، ورغائب ومخاوف. رغائب أنثوية بفرحة العمر، ومخاوف منح الجسد لرجل مجهول في بلد مجهول.

رحلة شاقة في قعر باخرة قديمة تمخر عباب المحيط الهادئ باتجاه كاليفورنيا، تنجاب حين أرست مراسيها عن واقع مرّ يرديهنّ إلى درك وضيع، حيث يكتشفن أن الواقع غير ما حملته الرسائل، وأن الصور المرسلة قديمة يرجع عهدها إلى عشرين عاما، وأن الأزواج الموعودين عمال بسطاء في مزارع القطن والخضروات...

هذه الأوديسة هي حلقة منسية من تاريخ اليابان الحديث، أعادتها إلى الذاكرة جولي أوتسوكا، وهي كاتبة أمريكية من أصل ياباني، حازت بفضل هذه الرواية جائزة فوكنر للرواية سنة 2011 وجائزة فيمينا للرواية الأجنبية في فرنسا سنة 2012.

**أبو بكر العيادي**

# قطار الليل إلى لشبونة

## المؤلف: باسكال مرسييه
## البلد: سويسرا
## ترجمة: سحر ستالة

منذ الصفحات الأولى لـ«قطار الليل إلى لشبونة» يُسمع صدى صوت عنيد، يكبر على امتداد الصَّفحات و لا ينفك يردد بأن هذا الكتاب الضخم رواية عظيمة. رواية قادمة من عصر آخر، عصر الإنسانيات قبل أن تدمّر السخرية أو اللامبالاة حبّ المعرفة.

**الفيغارو**

تتداخل الأحداث والأمكنة والذكريات، وتتدفّق المشاعر والمعارف والأفكار في نهر واحد ليس شيئا آخر سوى نهر الذّات وهي تستيقظ على نداءاتها المكتومة وأسئلتها المهملة: «إذا كان صحيحا أننا لا نعيش إلّا جزءا صغيرا مما يعتمل في داخلنا، فما هو مصير بقية الأجزاء إذن؟». سؤال مهمل من بين أسئلة كثيرة أخرى لا يكفّ هذا العمل الساحر عن إيقاظها فينا حتى تغدو حياتنا بأسرها موضع سؤال. ما الأدب إن لم يكن طريقا إلى الإنسان؟ وما قطار الليل إن لم يكن رحلة في خبايا الذات؟ وما الذّات إن لم تكن الفريد والمختلف والغريب في وجه المشترك والمؤتلف والمألوف؟

لا قطار ولا ليل ولا لشبونة، إنّها دعوة لكلّ واحد منّا كي يقتطع تذكرته الخاصّة بحثا عن الإنسان فيه، الإنسان الذي تركه غريبا مُهملا في محطة مهملة على سكّة الحياة.

**شوقي العنيزي**

# رحلة في أقاصي الليل

## المؤلف: لويس فرديناند سيلين
## البلد: فرنسا
## ترجمة: حسن عودة

«ستكون بمثابة الخبز لقرن كامل من الأدب.»

**سيلين متحدثا إلى ناشره**

«هناك كتب يصعب تفسيرها: تبدو كأنها خرجت من حيث لا ندري، ولكن عندما نقرؤها، سرعان ما نتساءل كيف عاش العالم من دونها. و«رحلة في أقاصي الليل» تنتمي إلى تلك السلالة النادرة: بداهتها توقع الاضطراب في حياة كلّ قرائها. لغتها الخام تغيّر طريقتكم في الحديث والكتابة والقراءة والحياة. لا يمكن لأحد أن ينجو منها. كم أحسد منكم أولئك الذين لم يقرؤوا بعد هذه اللوحة الملحمية»

**فريدريك بيغبيدي**

إنّ «رحلة في أقاصي الليل» لسيلين أهم رواية فرنسية بالنسبة إلينا... لقد حفظنا عن ظهر قلب مقاطع كاملة منها. كانت فوضويّتها قريبة من فوضويتنا نحن. ولقد كُتبت نكاية في الحرب، في الاستعمار، في الرّداءة، في التعابير الشائعة، وفي المجتمع، كُتبت بأسلوب أخّاذ فتننا جميعا. لقد نحتَ سيلين آلة جديدة: كتابة أعلق بوهج الحياة من الكلمات. ولقد قلبت أسلوب سارتر رأسا على عقب.»

**سيمون دي بوفوار**

# ذئب البراري

## المؤلف: هرمان هيسه
## البلد: ألمانيا
## ترجمة: أسامة منزلجي

عمل سرديّ باهر من أبرز سماته الإحاطة بمرحلته الزمنيّة الحرجة والتغلغل في ما وراء الصمت، ولكنّ الأسئلة التي تطرحها الرواية ما تزال متلبّسة بالكائن الإنسانيّ الممزّق بين ذئبيته وتوحّشه وبين ما يطمح إلى بلوغه من كمال وسكينة... أسئلة تنتقل بكلّ وهجها من جيل إلى آخر، من مثقّف عاش ما بين حربين رهيبتين إلى مثقّفين يتوغّلون في القرن الواحد والعشرين زمرةً من الغرباء المهمّشين المغيّبين بشتّى الوسائل عن عصرهم ومجتمعهم....

إنّنا أمام «ذئب» هارب من وليمة دم ، تنبّأ بالحرب الرهيبة القادمة وخيّر وحشة العزلة على المشاركة في الجريمة الكبرى.

لذلك سيجد إنسان اليوم المهدّد بموجات التوحّش والتطرّف والانغلاق ومقت الآخر، صوتا يمثّل هواجسه ومخاوفه، ووجها يشبهه في غربته ووحشته، إنّ ما اعتمل في باطن «هاري هاللر» من اضطرابات نفسيّة عاصفة وما عاشه من خيبات وآلام، يحدث لأغلب المحشورين اليوم في الغابات المدنيّة التي تُطلق عليها جزافا أسماء «أوطان» و«دول»، وما هي في الحقيقة غير أطر لصراع محموم بين قوى مستضعفة وقوى جائرة وشديدة الجشع ، هذا ما تفضحه الرواية وتعرّيه دون السقوط في تقريريّة فجّة أو خطاب أجوف، فقدر المبدع أن يخلق من جرحه وردة ، لا أن يعتنق الصراخ فيزيد العالم ضجيجا ...

**محمّد الهادي الجزيري**

# انقطاعات الموت

## المؤلف: خوزيه ساراماغو
## البلد: البرتغال
## ترجمة: صالح علماني

هذه الرّواية لا تنظر في عينيك، لا تواجهك، بل تنظر معك في الخلفيّة حيث تحدث الأشياء الأكثر قذارة وعنفا. تُنير تلك المنطقة المخفيّة السّوداء المُخيفة، وتكشف بشاعة حياة الكائن البشري الّذي يمعن في التّظاهر بنقائه وصدقه وبراءة عنصره. نصّ ينتزعك من ذاتك، يخترقك في لين وشاعرية، محترما كلّ قناعاتك، قبل أن يطيح بها هازئا ضاحكا.

تتساءل وأنت تقرأ: من أين يأتي ساراماغو بكلّ هذه القدرة على التّحقير من شأن الكائن؟ كيف يتسنّى له العصف بكلّ إرث المواضعات التّافهة والمشترك القيمي القائم على الكذب؟ كيف يسيطر على هذا الحشد من الأفكار ويسيّر عمارته السّرديّة بهذه السلاسة والحذق؟

يطرح الكتاب أسئلة لا حصر لها في علاقتنا بالزّمن. إنّنا نموت دائما في الأخير.. ماذا لو توقّف الموت عن قتلنا؟ ما معنى الموت أصلا؟ ولماذا نموت؟

بعد القراءة أنتَ لستَ الشّخصَ الذّي كُنتَهُ، كُنتَ تعرف قبل القراءة أنّ الموت والحياة شقيقان، لكنّك لم تكن تستشعر المأساة والكارثة في غياب الموت مرّة واحدة وإلى الأبد. كنت تعرف أنّك مُستغَلّ، ولكن وأنت تقرأ ستعرف أنّك كنت دائما نهبا لأنذال سرقوك باسم الله وباسم القيم وباسم الموت أيضا، ومارسوا ضدّك نذالاتهم كلّها. بعد القراءة تتيقّظ النّمرة التّي علّموها النّوم في أعماقك، تنبت لها في الظّلمة أنياب ومخالب.. وتنقضّ.

**نصر سامي**

# ساعي بريد نيرودا

## المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
## البلد: الشيلي
## ترجمة: صالح علماني

هي حقّا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

# مِيتَتان لرجل واحد

## المؤلّف: جورج أمادو
## البلد: البرازيل
## ترجمة: عبد الجليل العربي

كيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت ومعارفه القدامى، أن يهجر عادات حياة بأكملها، ليتشرد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، ويمارس الدعارة، أن يعيش متسخا، ملتحيا، يسكن في حظيرة وينام على فراش بائس؟ .

خبر موته مثّل فاجعة المدينة ومأساتها.

وإذا كانت رغبة العائلة، هي دفن «جواكيم سواريس دا كونيا» صاحب كنية، «كينكاس هدير الماء»، بطريقة محترمة، فقد كان لأصدقاء عمره رأي آخر.

لذلك لم يجئ الأصدقاء الأربعة لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان صديقهم العزيز فحسب، و إنما، لتصحيح خطإ في رواية موته حين لم يقتنعوا بأن كينكاس «ملك مشردي باهيا» الذي أقسم ألا يموت إلا بين الأمواج يمكن أن يلقى حتفه، هكذا، على سرير رث في غرفته في طوباو. ومن هنا سيعيدون تشكيل الحكاية من جديد.

تُرجمت هذه الرواية إلى 50 لغة وأجمع النقّاد على أنّها تمثّل رغم قِصَرِها تحفة أمادو النادرة طوال مسيرته الحافلة بالإصدارات.

**الناشر**

# زوربا اليوناني

## المؤلف: نيكوس كازنتزاكي
## البلد: اليونان
## ترجمة: أسامة إسبر

«لقد أربكتني هذه القصّة كثيرا. يوم قرأتها شعرت بشيء من الغبطة والحزن معا. كنت أريد أن أحبّ رجلا كهذا... أو أكتب رواية كهذه، ولم يكن ذلك ممكنا، ولهذا ستطاردني حتّى أشفى منها بطريقة أو بأخرى.»

**أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد**

زوربا... شخصيّة ورمز... توقّف عن أن يكون وجها وقسمات ليصير علامة... علامة بكلّ مفهومها التأويليّ... إحالة تقود إلى إحالةً... لتدلّ على إحالة وتتواصل السلسلة...

شخصيّة فاضت على كل حدّ وهربت من سجن الرواية على رحابته لتُصبح رمزا للمُهمّشين، للّذين يتعلّمون من الحياة، فيلسوفًا يعلّم الفيلسوف، حكمتُه خبرات المعيش ومعترك الوجود الإنساني...

رقصة زوربا انتهت دستورا للكون، رؤية تسخر من المعارف المتطاولة على الدنيا، المتعالية على الأرض، وتثور على وضع تكون فيه إمّا خادما أو مخدوما... تكسر كلّ قالب لتأتيك في كلّ لحظة بدرس جديد مُلخّصه: لا شيء يعلو على صوت الحياة الصاخب...

**ظافر ناجي**

# الحب والظلال

## المؤلف: إيزابيل الليندي
## البلد: الشيلي
## ترجمة: صالح علماني

أنت في ورطة الآن، كلّ ما يمكنك فعله هو التقدّم والاندهاش، ثمّ التقدّم والاندهاش. والتشويق؟ التشويق مُرّ في «الحبّ والظلال». كلّ لحظة فيها هي نهاية ممكنة، لكنّ البداية لا تنتهي. بداية أبديّة تتسّع دوائرها فتنمو الأحداث وتكبر الشخصيات ويبقى السرد طفلا ليكون خارج الظلال، محافظا على براءته. أوليست البراءة هي ما يقاوم العاشقان من أجله؟

ما دفنه التاريخ تنبش عنه إيزابيل الليندي بألم خانق يكاد يقطع أنفاس الرواية في كل لحظة، وبأمل خالق يضخّ الحَياة في عالم كامل ينشأ على حافة الهاوية، تروي من خلاله إيزابيل الليندي تلك المرحلة العمياء من تاريخ الشيلي.. لذلك فإنّ رواية «الحب والظلال» لا يمكن أن تنتهي، فهي تتحرّك في الذاكرة كما في النسيان، أو لنقل هي محاولة «لنسيان ما لا ينسى».

**أنور اليزيدي**

هذه قصة رجل وامرأة، أحب كلّ منهُما الآخرَ بكل جوارحه، لينجوا بذلك من حياة مبتذلة. وقد حملت القصة في ذاكرتي بحرص كي لا يبليها الزمن. والآن، في ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روايتها أخيرًا. لقد فعلت هذا من أجلهما، ومن أجل آخرين أودعوني حيواتهم قائلين: «خذي، اكتبي كي لا تمحوه الريح».

**إيزابيل الليّندي**

# عرس الشاعر

## المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
## البلد: الشيلي
## ترجمة: صالح علماني

إنه عراب السرد الشيلي بلا منازع.

هذا المجنون الآسر الذي بعث فينا النشوة بروايته المذهلة «ساعي بريد نيرودا» هو الوحيد الذي يجعلني أتوقف بعد قراءة أي عمل له عن أي قراءة أخرى، إنه قادر أن يختزل البحر في موجة والربيع في باقة من الأزهار والسحر كلّه في رواية، وعلى يديه غدت جزيرة «جيما» المعزولة عن العالم، البدائية بالنسبة إلى بعضنا، جزيرةً حية، ترتعش.

في هذه الرواية تشعر بطعم الدم، والنبيذ، وزيت الزيتون، والسمك المشوي، طعم الخيبة، وألم الهزيمة، ويقين النهايات..

رواية تشنّف سمعك بالسخرية والبذاءات، والشعر، وصهيل الثورات، والأغنيات. تهزك بمشاهد الذبح والرقص، والمجون، والسروايل المتسخة بالشراب وكلّ ما يجعل الحياة هنا لا في مكان آخر..

**طاهر الزهراني**

قصّة حبّ أسطوريّة قوامها المكيدة والسخرية، نظرة ذكيّة وتهكّميّة إلى أوروبا ما قبل الحرب العالميّة الأولى، ولكنّها في الوقت نفسه تأريخ لسلالة من المهاجرين الّذين وصلوا إلى الشيلي في بداية القرن العشرين.

تُرجمت هذه الرواية إلى 32 لغة وفازت في فرنسا سنة 2001 بجائزة ميديسيس لأفضل رواية أجنبيّة في العالم.

**الناشر**

# ذهول ورعدة

## المؤلّف: أميلي نوتومب
## البلد: بلجيكيا
## ترجمة: أبو بكر العيّادي

ذهول ورعدة هي تجربة حياتية فريدة عاشتها الكاتبة بحلوها القليل ومرّها الذي يملأ الصفحات، تصوّر من خلال انحدارها إلى درك وضيع في إحدى الشركات الكبرى الوجهَ الآخر لليابان، حيث تمثّل الشركة صنوا للحياة، بل هي الحياة، تتكلّس أمامها العواطف، وتغدو العلاقات الإنسانية أشبه بلقاءات عابرة مخطوفة من زمن هارب.

تشرّح أميلي نوتُومّب عالم الشغل في يوميموطو، بأسلوب ساخر يتسم بالاقتصاد في السّرد، وتكثيف الحوار. يوميموطو الشركة اليابانية التي تلتهم العاملين فيها، وتجعل كلّ واحد منهم جلاّدًا وضحية في الآن نفسه، باستثناء أميلي الأوروبية المتعاقدة التي لا تزال تعيش على مخزون عاطفي من أيام طفولتها بكَنْصاي، إحدى المقاطعات اليابانية، أين ولدت وترعرعت. فموقعها في أسفل السلّم الوظيفي لم يكن يسمح لها إلاّ بتلقي الأوامر، حتى المهين منها... دون نقاش.

هذه الرواية، التي حازت الجائزة الكبرى للأكاديميّة الفرنسيّة لعام 1999، ونقلها المخرج الفرنسي ألان كورنو إلى السينما عام 2002، هي أكثر أعمال نوتُمّب التصاقا بسيرتها الذاتية.

أبو بكر العيّادي


Twitter: @alqareah


Twitter: @alqareah

جيروم فيراري

# حيث تركت روحي

في منتصف الرواية يقول القائد لجنوده: «أيها السادة، إنّ العذاب والألم ليسا المفتاحين الوحيدين لسبر أغوار الروح. بل هما، أحياناً، بلا جدوى. لا تنسوا أنّ هناك مفاتيح أخرى: الحنين، الكبرياء، الحزن، العار، الحبّ. انتبهوا جيّدا للشخص الماثل أمامكم. لا تتشبّثوا بآرائكم دون فائدة. ابحثوا عن المفتاح. يوجد دائما مفتاح.»

بعيدا عمّا يمكن أن يثيره هذا الخطاب، فإنّه يلخّص بشكل جيد موقف جيروم فيراري الروائيّ وأستاذ الفلسفة معا، جيروم فيراري الّذي لا يكفّ في هذه الرواية عن سبر أغوار الروح الإنسانيّة في أشدّ زواياها ظلمة وأكثرها التواءً بأسلوب محتدم ومتقن وعاطفي.

إنّها حكاية شخصين ورفيقي سلاح أنجبتهما الحرب.

في تسلسل الأزمنة والأمكنة التي توحي باستمرار العنف الأعمى والدموي يرتسم طريق وعر وقاحل خارج العالم. محنة خاضها رجلان في مواجهة ذاتيهما وشيطانيهما. من هذا الغوص في الهاوية المزعجة والمرعبة، من هذا البحث المستحيل في ما وراء الخير والشر، تطالعني شخصيّا قناعة راسخة وهي أنني قرأت واحدة من أشد الروايات تأثيرا في حياتي.

كريستين روسو

صحيفة لوموند



ISBN: 978-9938-833-67-6

